الجـزء الأول

دراسة في

مقاصد القرآن .. كيف نفهم القرآن

اللهم إنا نسألك أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهك الكريم
وحقًا . . ومقبولاً عندك يا أرحم الراحمين.

اللهم آمين

الفصل الأول

المقصد الأصلي للقرآن
التوحيد

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ ﴾

[هود ١-٢]

﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾.

[الزمر ١-٢]

«**كل عبادة في القرآن فهي توحيد**» حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه.

«بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد بل نقول قولاً كليًا:

إن كل آية في القرآن فهي متضمنةٌ للتوحيد، شاهدةٌ، به داعيةٌ إليه».

الامام ابن القيم رحمه الله

مقدمة

نبين في هذا الفصل أن المقصد الأصلي الذي دار عليه التنزيل هو توحيد رب العالمين ..

وأوضحنا فيه:

ـ أن معنى العبادة في القرآن ليس مجرد الأداء بل معناها إفراد الله تعالى بها .. ذلك لأن الخصومة كانت في هذا بين الرسل وأقوامهم .. أما مجرد الأداء فقد كان يقع من المشركين في بعض الأحيان وبعض الأحوال، ولم يُقبل منهم.

ـ ثم بينا قيمة التوحيد .. ثم القيمة السلبية والخطرة للشرك.

ـ ثم بينا أن الانحراف ولو بدا ـ ظاهرًا ـ بسيطًا وكان مرتبطًا بالأصل العظيم من الانحراف عن التوحيد بالشرك ـ فإنه يأخذ بُعدًا هامًا في كتاب الله تعالى، ويُبين بطلانه، وبطلان القاعدة التي يستند إليها من صرف حق الله الخالص إلى غيره ..

ـ وفي هذا استعرضنا على وجه الإجمال سورة الأعراف .. وذلك لبيان كيفية تناول تصحيح انحراف ما مرتبط بالتوحيد والشرك .. وكيف حُشدت له حقائق وقواعد هامة لمعالجة هذا الانحراف وأضرابه وإصلاح الحياة كلها .. كل هذا من خلال معالجة المناسبة الحاضرة وهي الطواف بالبيت عراة ونسبة الأمر به والرضا عنه لله تعالى .. ولا يستطال هذا لأنه بيان لحقيقة هذا الكتاب العزيز وبناء القرآن كله على أمر التوحيد كقرار أول يتخذه المسلم ليكون مسلمًا ولتتحدد على أساسه طريقة حياته.

ـ ثم نقلنا ما ذكره الأستاذ سيد قطب في مقدمة سورة الأنعام ـ كأول سورة مكية في ترتيب المصحف ـ وذلك لبيان المجالات التي عرض فيها القرآن حقيقة التوحيد وبطلان الشرك؛ سواء كانت هذه المجالات في مظاهر الكون والخلق .. أو التاريخ البشرى .. أو أغوار النفس ومخاوفها ومطامعها وفطرتها التي فُطرت عليها وترجع إليها عند الكروب .. أو في مصارع المكذبين .. أو في مشاهد الآخرة عند ظهور الحقائق للجميع..

ـ وما تناولته سورة الأعراف والأنعام هي طريقة القرآن المكي عمومًا ، وإنما استعرضناهما ليكونا مثالاً لمعرفة النسق المتبَع.

ـ ثم بيّنا أن القرآن المدني لما انتقل إلى الحديث عن الأحكام وتفصيلاتها وتفصيل نظام الدولة في الإسلام وتفصيل النواحي السياسية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها .. لم يترك التوحيد لينتقل إلى غيره من فروع الأحكام بل انتقل به وخاطب باسمه وحضض به وشرط قبول العمل باستيفائه .. ولهذا استعرضنا على وجه الإجمال سورة البقرة لبيان وجه الربط بين فروع الأحكام وبين الأصل العظيم من التوحيد وترك الشرك، وتتبعنا هذه القاعدة من خلال الآيات: «أن القرآن يخاطبنا في جميع مناحي الحياة من تشريعات ومن خُلُق ومن صفات ولم يترك التوحيد ليخاطبنا في هذا بل خاطبنا في كل هذه الأمور

مع التوحيد؛ فيذكِّر به وبمفرداته أو بعضها ويذكِّر بالميثاق عليه وبالوصية به ثم يربط به الأحكام فينادى باسمه ويجعله شرطاً للخطاب ومحضضاً على قبوله وعلى القيام بالأمر الشرعي».

ـ ثم استعرضنا سورة النساء بطريقة أكثر إجمالا لبيان ثلاث حقائق:

أولاً: تنوع الخطاب في شتى مجالات الحياة

ثانيًا: الأمر بالتوحيد وبمفرداته والنص عليه وتجريم الخلل فيه

ثالثًا: ربط تفصيل الشرائع به

ـ وفى هذا كله شرحنا كلمة ابن القيم في المدارج: «بل نقول قولاً كليًا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد؛ فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[1].

ـ ثم ذكرنا أن الاهتمام بالتوحيد هام جدا لأن الإسلام ليس مجرد ديانة أو نحلة بالمصطلح المعاصر بمعنى أنه ديانة لا علاقة لها بالنظام الخلقي أو الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي بل هو مشرب حضاري ومنهج حياة، وقد فصّلنا شرح هذه النقطة.

ـ ثم كانت نظرة على واقع المسلمين لإدراك أهمية هذا الطرح، وأن النفق المظلم الذي تعيشه الأمة ناتج من الخلل في فهم حقيقة التوحيد أو لخلل في القيام بها .. وذلك لإدراك أن هذا المبحث ليس نظريا بل هو أساس الإصلاح المفترض لواقعنا المعاصر، والله المستعان.

ولله الحمد أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

(١) مدارج السالكين جـ٣، صفحة ٤٤٩ - ٤٥٠.

المقصد العام: التوحيد

يقول ابن القيم رحمه الله: «.. بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد بل نقول قولاً كليًا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه ..

فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[1].

* * *

رسالة القرآن الأصلية هي توحيد الله تعالى:

١ - فما أُنزل إلا ليُعبد الله سبحانه وتعالى وحده ..

فيُفرَد سبحانه بحقوقه الخالصة من الطاعة والحب والتعظيم.

وهذه هي زبدة الرسالة وخلاصتها .. ومن أجلها خلق الخلق ..

وهذا واضح من هذه الآيات: قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾، يقول ابن كثير: في ألفاظها ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ قال: في معانيها ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾.

ثم نص على المقصود من إحكام القرآن ثم تفصيله من أنه من أجل غاية واحدة فقال: ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ ﴾، ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ يعني: من شرككم به ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾، بالتوحيد فيما تستقبلون من أعماركم ﴿ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ [هود: ١-٢] إلى آخر الآية.

وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾، ثم حدد سبحانه غاية التنزيل فقال تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ ﴾ [الزمر: ١-٢]، يعني: إفراده بالعبادة وإخلاصها له سبحانه .. فهذا سبب التنزيل وغايته[2].

---

(١) مدارج السالكين، جـ٣، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٢) ثم ذكر بعدها الخلل في الاعتقاد وهو خلل في الربوبية.
ثم ذكر من موجبات الربوبية في خلق الإنسان ثم من موجباتها في ملكه للضر والنفع ثم انحراف الإنسان عند الرخاء فيعبد غيره تعالى، ثم يحدد ما هو التوحيد والإسلام بإفراد الله بالطاعة والخضوع، ثم يذكر من موجبات الربوبية في الكون من إنزال الماء من السماء .. ثم الإسلام والهداية إليه، ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد ثم التبرؤ من آلهتهم وعدم التعلق بها، ثم ذكر أدلة أخرى من الربوبية لإفراده تعالى بالتعلق والتعبد .. وأشار لمصير الكافرين وللخلل البشرى في الخلق مع الله تعالى وجحوده له وانصرافه عن حقه تعالى بحجج واهية من الشهوات يختبر بها فيسقط ثم دعا عباده إلى التوبة من الشرك ومن كل المخالفات .. إلى آخر السورة التي ذكر فيها مصير كل من المشركين الكافرين ثم المسلمين ثم حمد رب العالمين وفيها ذكر: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ ﴾، فكلها موجات متلاحقة لمعالجة هذا الأمر العظيم بصور شتى وفي مجالات شتى، فالسورة كلهَا في تقرير هذا بعدما قررت أن القرآن كله قد نزل لهذه الغاية.

وهذا ما فهمته الجن لما سمعوا بضع آيات من القرآن يصلي بها رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾.

فماذا فهموا من هداية القرآن؟ وماذا أداهم إيمانهم به؟.

قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

* * *

٢- فهذه زبدة الرسالة بل وزبدة جميع الرسالات ..

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

كلمة جميع الأنبياء: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢]، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

* * *

٣- بل وهو سبب الخلق والمقصود منه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والمعنى: إلا ليوحدون. قال ابن عباس: كل عبادة في القرآن فهي توحيد.

وهذه نقطة تحتاج إلى توضيح:

فما ذكر في القرآن من الأمر بعبادة الله تعالى ليس المقصود بها مجرد أداء العبادات بل المقصود بها إفراده بالعبادات دون شريك .. وهذا هو مقصد ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا معنى سورة «قل يا أيها الكافرون».

- بيان أن معنى العبادة في مصطلح القرآن هو التوحيد، يعني إفراد الله تعالى بها، وليس مجرد الأداء لبعض العبادات مع كون بعضها لغيره تعالى، وذلك من خلال فهم معنى سورة "قل يا أيها الكافرون" مع بيان معنى التكرار الوارد بها:

فمقصود السورة الكريمة هو التبرؤ من الكافرين ومن طريقتهم، وبيان كفرهم وأن كفرهم راجع إلى إشراكهم بالله تعالى في العبادة سواه، وبيان أنهم لا يعبدون الله طالما أنهم يشركون به، فالعبادة لا تكون في محل القبول والرضى إلا إذا كانت خالصة لله تعالى، لا يُشرك معه فيها ملَك مقرب ولا نبي مرسل .. فإنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الله وإن عبدوا معه آلهة أخرى على سبيل الشفاعة واتخاذ الواسطة لكن مقصودهم هو رب العالمين، وكانوا يقصدون أن هذا التشفع بغيره إليه والتوسط بغيره إليه لا يقدح في عبادتهم له، لأن مقصودهم تعظيمه، فلم يقبل منهم سبحانه هذه العبادة، بل وبيّن سبحانه أن عبادتهم مع شركهم كـ (لا عبادة) كأنها لم تقع .. فيصح نفي العبادة لله تعالى منهم رأسًا، ولذا قال: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

فقوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ براءة، وقوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، هذا لنفي زعمهم. فطالما أنهم يصرفون حقه الخالص له ولغيره فهم لا يعبدونه.

ـ بيان معنى التكرار للجمل في السورة مع المغايرة بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية.

ثم أكد مرة ثانية: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ ويكون هذا إما:

١ - تكرارًا للتوكيد ويكون قد نفى في الجملة الأولى وقوع الفعل منه ﴿ لَآ أَعْبُدُ ﴾، وفى الثانية نفى اسم الفاعل ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ ﴾ ليكون أبلغ، وفى المرتين نفى عن المشركين عبادتهم لله وأنها غير مقبولة وذلك لشركهم بل وكأنها كـ (لا عبادة)، هذا قول.

والبعض يجعل التوكيد المجرد قول، وتنويع النفي ما بين الجملة الاسمية والفعلية قولاً آخر، والأخير هو اختيار شيخ الإسلام.

٢ - وقول آخر للعلماء بأن الجملة الأولى فيها نفى عبادته لآلهتهم وتوكيد براءته منها في الحاضر، وفى الجملة الثانية نفى عبادتها وأكد براءته منها في المستقبل، وهذا قول البخاري وغيره.

٣ - وهناك قول آخر للعلماء فيها وذلك أن (ما) في الجملة الأولى موصولة بمعنى (الذي) فيكون المعنى: لا أعبد الذي تعبدون.. فيكون المقصود منها التبرؤ مما يعبدون، وأن (ما) في الجملة الثانية مصدرية فيكون المعنى نفي طريقة تعبدهم والتبرؤ منها ويكون معنى الآية: ولا أنا عابد عبادتكم، وذلك لأن تشريعاتهم مفتراة ومبتدعة وليست هي شريعة إبراهيم ودينه.

يقول البيضاوي: «﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي: فيما يستقبل فـ (أن) لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال كما أن (مَا) لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال».

ـ ولبيان المآخذ اللغوية لهذه الأوجه يقول البيضاوي رحمه الله مبينًا هذا :

«﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي: فيما يستقبل لأنه في قِران ﴿ لَآ أَعْبُدُ ﴾.

﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي: في الحال أو فيما سلف.

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي: وما عبدتم في وقت، ما أنا عابده، ويجوز أن يكونا تأكيدين على طريقة أبلغ، وقيل إنها مصدرية ، **وقيل الأوليان بمعنى الذي والأخريان مصدريتان**»[1].

والقول الأخير هو الذي اختاره ابن كثير مع حكايته لباقي الأقوال ، يقول رحمه الله تعالى:

«﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني: من الأصنام والأنداد ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾، وهو الله وحده لا شريك له فـ (ما) هاهنا بمعنى (من)، ثم قال: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي: لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئًا من تلقاء أنفسكم كما قال: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لابد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أي: لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول ﷺ.

---

(١) تفسير البيضاوي: جـ١، ص ٥٣٨ - ٥٣٩.

والمشركون: (١) يعبدون غير الله (٢) عبادة لم يأذن بها الله؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، وقال: ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾.

وقال البخاري يقال: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾: الكفر، ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾: الإسلام، ولم يقل: (ديني) لأن الآيات بالنون فحذف الياء كما قال: ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾، و ﴿ يَشْفِينِ ﴾.

وقال غيره: لا أعبد ما تعبدون الآن، ولا أجيبكم فيما بقي من عمري، ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم الذين قال: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾، انتهى ما ذكره[1]. ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد، كقوله: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾، وكقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾، وحكاه بعضهم كابن الجوزي وغيره عن ابن قتيبة، فالله أعلم.

فهذه ثلاثة أقوال: أولها ما ذكرناه أولاً.

والثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ في الماضي، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ في المستقبل.

الثالث: إن ذلك تأكيد محض.

وثمَّ قول رابع: نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضًا. وهو قول حسن أيضًا، والله أعلم» ا.هـ[2].

وبهذا يكون في الجملة الأولى قد تبرأ مما يعبدون، وفي الجملة الثانية تبرأ من شريعة غير الله، وذلك لأن جماع الدين أصلان:

١- أن يعبد الله وحده.

٢- أن يعبد بما شرع على ألسنة رسله في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت.

وقد نفهم معنى قوله تعالى في الجملتين: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾، لكن لن يفهم أحد الشق الثاني والمكرر في كل جملة: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾، والذي ينفي عن المشركين عبادتهم لله إلا إذا علم معنى العبادة، فإن الله تعالى أثبت لهم نوعًا من الأمور يتقربون بها لله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وكذلك هم يزعمون أن هذه التعبدات مقصود بها رب العالمين كما يزعم المشركون دائمًا هذا،

(١) يعني البخاري والكلام متصل لابن كثير.
(٢) تفسير ابن كثير، جـ٤، ص ٧٢٦.

فالنصارى يزعمون عبادتهم لله بتعبدهم للمسيح، واليهود يزعمون كذلك أنهم يتعبدون لله تعالى بل وأنهم أوْلى بالله تعالى من غيرهم، وكما يزعم عباد القبور والأولياء والأضرحة أن مقصودهم رب العالمين .. فكما ترى.. الوثنيون وأهل الكتاب والمنحرفون إلى طرائقهم من منتسبي هذه الأمة الكل يزعم تقربه لله تعالى وقصده له تعالى من خلال وسائطه .. كلٌ بحسب واسطته .. فنفى القرآن أي طريقة فيها إشراك أو رد للشرائع الناسخة ولم يقبل من أحد إلا أن يعبده بلا شريك في التوجه إليه تعالى، وأن يقبل الشريعة الناسخة مع محمد ﷺ.

فكلام ابن عباس أن العبادة في القرآن: هي التوحيد يستند إلى النص والإجماع.

ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: أن العبادة هي التوحيد لأن الخصومة فيه[1].

يعني: بين رسول الله وقومه المقرين بربوبية الله تعالى.

إذن فمن أجل التوحيد نزل القرآن .. ذلك لأنه به أرسل كل رسول ـ يعني: بالتوحيد ـ ومن أجله نزل كل كتاب كما أن من أجله خلق الله الخلق.

* * *

٤- وحصر الأمر عليه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، فالآية تبرز أهمية التوحيد ومكانته في الكتب المنزلة عمومًا وكأن الخلق لم يؤمروا إلا بهذا، برغم أن هناك أحكامًا وأوامر ونواهي أخرى ولكن لأهمية التوحيد ودوران الشرائع والكتب والرسل عليه فكأنهم ما أمروا إلا بهذا. فهذا نص على أنه زبدة الكتب والرسالات.

* * *

٥- وكذلك التوحيد هو غاية القصص: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ [آل عمران: ٦٢].

فكان المقصود مما قص هو إفراد الله تعالى بالعبادة.

بل وقد سيق كل قصص لبيان قصة الخلق مع (لا إله إلا الله) ولبيان أن كل رسول حمل هذه الجملة وكانت هي رسالته: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [هود: ٥٠]، ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ ﴾ [هود: ٢]، ثم يقص سبحانه علينا كيف استقبل الخلق هذه الرسالة بهذه الكلمة، وكيف صبر النبيون من أجلها، ثم ماذا كانت عاقبة من قبَلها وعاقبة من أباها، ويقص علينا أن من يقبلها يكون له طريق وخُلُق ومنهج حياة خاص ومتميز عَن من لم يقبلها.

وعندما قال نوح: ﴿ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٢-٣]، نعلم أن العبادة هنا يقصد بها إفراد الله تعالى بالتعبد .. والتقوى هنا تفسر بترك الشرك.

ويرتب تعالى على القصص إفراد الله تعالى بالعبادة، فيقول تعالى بعد القصص في سورة هود معقبًا بحرف الفاء للدلالة على أن الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك مسبب عن القصص، وأن الغاية منه بيان بطلان الشرك وعاقبته في الدنيا وفى الآخرة، وبيان أحقية التوحيد ونجاة أهله ورفعتهم: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴾ [هود: ١٠٩].

* * *

(١) كتاب التوحيد، ص١٧.

٦- وكذلك فهو غاية العمران:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

فهذا البيت إنما وضع من أجل إعلان توحيد رب العالمين ونفي الإشراك به، وهكذا المسلمون عمرانهم وبناؤهم وطريقة مدنهم المتمركزة بالمسجد لا بدور اللهو، فإنما البناء والعمران من أجل "لا إله إلا الله"، وكذلك التوالد والتناسل وطلب الولد .. فمكة المكرمة إنما نشأت من أجل امتثال أمر الله تعالى وإظهار شعائر الإسلام: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، يعني: أسكنهم هنا، وتقوم قرية بأكملها من أجل إقامة الصلاة[1].

فإقامة الدين وشعائره وشرائعه يقام من أجلها البنيان والمدن وتصلح من أجلها المرافق وترصد من أجلها الأموال ويهاجر من أجلها وتترك أوطان إلى أوطان كل هذا من أجل "لا إله إلا الله"، كما يتأثر البنيان وطريقته وتفاصيله بقيم هذا الدين .. إنها أعظم كلمة في الوجود: "لا إله إلا الله".

فهل من قرأ القرآن شعر بهذه المساحة الضخمة والثقل الرهيب لهذه الكلمة؟.

من لم يفهم هذا من القرآن فلْيُعد قراءته.

روى الحاكم في مستدركه: «عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب علمني شيئًا أذكرك به وأدعوك به. قال: يا موسى قل: لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقول هذا، قال: قل: لا إله إلا الله. قال: لا إله إلا أنت، رب إنما أريد شيئًا تخصني به. قال: يا موسى لو كان السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله»[2].

* * *

٧- وكذلك ينص القرآن على أن غاية الإنذار وغاية التخويف من النار هو ترك الشرك وإفراد الله بحقه الخالص:

فبعدما ذكر الله تعالى مشاهد القيامة والنار في سورة إبراهيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٣-٤٦].

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، إلى قوله: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٧-٥١].

---

(١) على وجه تعلق اللام بإقامة الصلاة.

(٢) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، المستدرك جـ ١، ص ٧١٠، رقم ١٩٣٦.

قال الله تعالى بعد كل هذا الإنذار: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾، ثم نص على المقصود من البلاغ والإنذار فقال: ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وفي آيات الوعيد في سورة الزمر: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٥]، يعني: بترك الشرك، وهذا واضح من السياق فقد قال قبلها: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر: ١١-١٥]، وأكد بعدها على ترك الشرك فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر: ١٧].

وفي آيات الوعيد في سورة الواقعة: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]، قال تعالى بعدها مبيّناً سبب العذاب: ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٤٦]، وهو الشرك، ونص كذلك على تكذيبهم بيوم الدين وهو شرك أيضًا في الربوبية.

فالتوحيد: تصديق بالله وبخبره، وخضوع خالص لله تعالى.

وفي سورة الشعراء قال تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٨]، فالتبكيت كان على العبادة من دون الله فهو سبب الدخول، ثم كان ندمهم على التسوية برب العالمين، والتسوية هنا هي في العبادة والمحبة، وليست في اعتقاد الخلق والرزق، فهذه هي الجريمة التي تحددها الآيات الكريمة.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۖ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]، فالنار والتهديد بها أصلاً إنما كان لمن يصرف حق الله تعالى إلى غيره.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٣٠].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وكان الاستمتاع بدعاء وعبادة الإنسي للجني فيستمتع الإنسي بقضاء بعض أموره المحرمة، ويستمتع الجني بتعظيم الإنسي له وعبادته.

وقال عند موتهم: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقال عنهم يوم القيامة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٩-٧٤].

وقال عنهم أيضًا يوم القيامة: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ [ق: ٢٤-٢٦].

وهذا نص مباشر: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١]، فهذا حصر للنذارة والإرسال في هذا الأمر الجلل وهو إفراد الله تعالى بالعبادة.

وغيرها من المواضع في القرآن يشير مجموعها بل وينص على الغاية من الإنذار وهو:

إفراد الله بالعبادة وترك الشرك به.

* * *

٨- وكذلك التهديد بالعذاب الدنيوي والأخذ، كان من أجل التوحيد والنهي عن الشرك:

يجمع الله تعالى التهديد الدنيوي والأخروي فيقول: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠].

ويهدد تعالى بأخذ السمع والأبصار التي خُلقت لمعرفة الله والقيام بحقه، فلما تعطلت واستُعملت في غير هذا قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦-٤٧]، يعني: المشركون، فالشرك هو أعظم الظلم: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

ويذكر تعالى كروب الدنيا وضوائقها، فيقول أنه يبتلي عباده ليرجعوا له وحده ويتخلوا عن كل ما تعلقت به قلوبهم، لكنهم في البلاء يُخلِصون، يعني: يوحدون، وبعده ينقضون العهد ويغدرون فيشركون: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ يعني: المعبود بحق ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٣٢-٣٣]، والفسق هنا هو الفسق الأكبر وهو: الشرك.

ويذكر تعالى كروب البحر: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥-٦٦]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: ٣٠-٣١]، والختار هو: الغدار.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَٰقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٣-٣٥].

بل يذكر تعالى جميع الكروب والضر: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢]، ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢١-٢٢]، والشكر هنا بالتوحيد وإفراده بالعبادة، ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ٨].

* * *

٩- وقد نص الله تعالى على موضوع المواجهة والتحدي والإشهاد بين الرسل وأقوامهم أن غاية المواجهة والتحدي والإشهاد هو: التوحيد.

فيأمر الله تعالى رسوله أن يواجه قومه بهذا: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وأمره أن يواجه قومه بهذا: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الأنعام: ١٤-١٦].

وأمره أن يواجههم بقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥]، **والصدق يكون في الأخبار، والعدل في الأحكام، فالمعنى أن كتابه تعالى صدق في أخباره عدل في أحكامه.**

وبقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

وبقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦].

وبقوله: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [الزمر: ٣٨-٤٠].

وأمره أن يواجه بقوله: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١١-١٦].

وبقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٨].

وبقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٤-١٠٧].

وغيرها كثير من الآيات توضح أن المواجهة والمفاصلة والجدال والإشهاد من أجل عبادة الله تعالى وحده وإفراده بحقه الخالص.

وذكر مواجهة نوح وإشهاده: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧١-٧٢].

وذكر عن هود مواجهته وإشهاده: ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٣-٥٦].

وذكر عن إبراهيم: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩].

وذكر عن مؤمن آل ياسين هذه الصرخة: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٢-٢٥].

وذكر عن مؤمن آل فرعون: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨].

* * *

ـ بيان معنى قوله «ربي الله» ولماذا رفضها المشركون مع إقرارهم بربوبية الله تعالى، وبيان أن المقصود هو لازمها من إفراد الله تعالى بحقه الخالص والتأله له تعالى وحده:

وقول موسى: ﴿ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ وكذلك ما حكاه الله تعالى عن أصحاب النبي ﷺ في سورة الحج: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

يعني: بموجبها من التأله له وحده، فالربوبية موجِب الألوهية، فمن أقر بالربوبية فهو محجوج لأداء حق التعبد لله وحده وإلا لم ينفعه إقراره وصار حجة عليه، كما احتج تعالى على المشركين بإقرارهم بربوبية الله تعالى وتفرده بالخلق والرزق على وجوب إفراده بتعلق القلوب وبالطاعة وبالتوجه له وحده، بل جعلهم في بعض المواطن كأنهم كاذبين في إقرارهم وتصديقهم بخلق الله لهم.

وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧]، يعني: فهلاّ تصدقون، فهو يدعوهم هنا للتصديق بأنه الخالق، بينما في معظم مواطن القرآن يذكر تعالى عنهم أنهم مقرون بهذا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف: ٩-١٢]، وغيرها كثير في مواضع مختلفة، فتكون دعوته تعالى هنا للتصديق بهذا الذي يقرون به سببه أنهم لم يأتوا بموجبه من عبادة الله تعالى وحده فيدعوهم لتحقيق موجب هذا التصديق.

يقول البيضاوي: «﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ بالخلق متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه أو بالبعث فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة»[1].

وذكر عنه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٤].

فالمقصود من الرسالة عمومًا هو: التوحيد، والمقصود من المواجهة والمفاصلة أيضًا التوحيد.

* * *

(١) تفسير البيضاوي، جـ١، ص٢٨٩.

ذم القرآن للشرك وبيان فحشه:

وكما علَّمنا ربنا سبحانه وتعالى أن غاية القرآن والرسالة والمواجهة والقصص والإنذار والخلق والعمران هو التوحيد.

١ - أخبرنا تعالى بفحش الشرك وأنه سُبة لله تعالى:

ولهذا يقول تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فهذا التسبيح هو تنزيه لله تعالى عن الشرك في الوصف بادعاء الولد له (سواء كان من العرب بادعاء الملائكة بنات الله تعالى، أو النصارى بالإدعاء في المسيح عليه السلام، أو من اليهود بالإدعاء في العزير).

ثم نزه تعالى نفسه عن الشرك في العبادة لتضمنه أعظم السب له تعالى لما يستلزمه من التنقص لرب العالمين، سواء كان المعبود نبيًا، أو ملكاً، أو صالحًا، أو أحدًا من آل بيت رسول الله ﷺ فقال بعدها: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٢].

ويقول: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ ﴾ يعني: إلى توحيده كما هو نص المفسرين ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ ﴾ يعني: أيضًا يدعون إلى توحيد الله تعالى في العبادة، ثم ذكر الشرك ولأنه سُبة لله تعالى ذكر قبله تسبيحه عنه تعليمًا للمؤمنين فقال تعالى: ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالتوحيد الذي أنا عليه ومن اتبعني هو التنزيه لله ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾، وأعلن براءته مما يسبه به المشركون بشركهم، والذي وإن لم يكن سبًا صريحًا بل ويظن المشركون أنهم يتقربون به لله تعالى بزعمهم!! لكنه متضمن لأعظم السب فقال: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يعني: لستُ مثلكم ولا منكم ممن تسبون الله فلا أسبه بالشرك كما تفعلون.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «باب "الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله"، وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، فيه مسائل:

الثانية: التنبيه على الإخلاص لأن كثيرًا لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد: أنه تنزيه الله تعالى عن المسبة.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله»[(١)].

يقول الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب عن المشركين المعاصرين لزمنه من الغلاة في القبور والأضرحة: «وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا وأنهم أمروهم به، وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم!»[(٢)].

---

(١) كتاب التوحيد، ص ٧٧.

(٢) الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة.

٢- **وهو أعظم الظلم:** ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

* * *

٣- **وهو موت قبل الموت** فالمشرك ميت بين الناس: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٠]، وهو تعريض بالمشركين بأن نسبة سماعهم للحق كنسبة سماع الميت إلى كلام الحي، بل هم كالقبور المتحركة بقلوب ميتة متعفنة منتكسة يحملونها بين جوانحهم وفي صدورهم.

* * *

٤- **ولذا جعل الله تعالى المشرك ميتًا في ظلمة،** وجعل الموحد لربه حيًا قد قُسم له من النور ما يضيء له حياته ومماته، وجعل تعالى الانتقال من الشرك إلى التوحيد والإسلام **بمنزلة إحياء الميت وبعثه من جديد:** ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

* * *

٥- **وأي سعي وأي عمل لا يقبل إلا ممن كان موحدًا،** وهذا معنى اشتراط الإيمان لقبول العمل الصالح والسعي الأخروي الوارد في القرآن، فالإيمان المشترط لصحة الأعمال وقبولها مقصود به أصل الإيمان، وهو: التوحيد، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ [طه: ٧٥].

* * *

٦- **وجعل الله تعالى سعيَ من فقد التوحيد سعيًا حابطًا:**

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، فصدقاتهم وإطعامهم وما يبذلونه من المعروف وما يعملونه على وجه القربة لله تعالى أحبطه شركهم فلم يجدوا ثوابًا ولا حسنات.

وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ يعني: الصالحة التي لو عملها الموحد المؤمن لقبلت منه وجوزي عليها ﴿ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ ﴾ [إبراهيم: ١٨]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

وقال تعالى عنهم يحذرنا الشرك ويوجب علينا تعلم التوحيد لتحقيقه، وتعلم ما هو الشرك لتجنبه، وإلا بطل العمل وخاب السعي: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]،

فليس لأعمالهم وزن، ولا لصحفهم، بل ولا لأشخاصهم كما ورد الحديث: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾»(١).

* * *

٧- وأخبرنا أن المشرك ضائع .. يهوي إلى واد سحيق:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

* * *

٨- والمشرك سفيه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، وذلك إمام الحنفاء الموحدين فقال في عقب هذه الجملة: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ثم ذكر ظرف الاصطفاء والصلاح وأنه كونه مخلصًا لربه في عبادته وأداء حقوقه الخالصة له بلا شريك فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، يعني: اصطفيناه وجعلناه من الصالحين عندما قال له ربه ﴿أَسْلِمْ﴾ يعني: أخلص دينك وعبادتك لله واستسلم له بقبول أمره فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولم يكتف بهذا، بل لعلمه بقيمة هذا الأمر كان يوصي أولاده وهم أنبياء بهذا الأمر الجلل.

بل ويعقوب حفيدُه يوصي كذلك بهذا الإرث الضخم فقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، يعني: مخلصون لله قابلين حكمه تعالى، بل ويقلق يعقوب على إرثه هذا عند موته فيستوثق من بنيه قيامهم بعبادة الله وحده وتوحيده فقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، يعني: مخلصون، مفردون له العبادة والتوجه.

وبين تعالى سفاهة المشركين دومًا فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾»(٢).

فالمشرك سفيه شاء أم أبى، فالسفاهة ملازمة لكل مشرك، والاستقراء يوضح هذا بيانًا واضحًا، ومَن استقرأ أحوال الأرض من المشركين لوجد هذا ما بين مشرك بالقبور والأضرحة أو مشرك بمقبور يزعم له الصلاح، أو المشركين بالصليب وبالمسيح وأمه، أو من المشركين بالمادة والطبيعة، أو المشركين بالأوثان من بوذا إلى كونفيشيوس إلى عبادة الحيات والفئران إلى آخر التّرهات، أو المشرك هواه أو المال أو الشهوات .. فكلهم ورث السفه عن أسلافهم ..

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي، قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو خيرًا منه ألقيناه وأخذنا الآخر؛ فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به.

---

(١) صحيح البخاري، جـ ٤، ص١٧٥٩.
(٢) صحيح البخاري، جـ٣، ص١٢٩٧.

وقال الكلبي: كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً، أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فاتخذه ربًا، وجعل ثلاثا أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه».

فهذا السفه وهذا الضياع هو: الشرك، فجاء القرآن بفضحه وبيان قبحه وتسفيهه وتنزيه ربنا سبحانه وتعالى عنه.

* * *

٩- وهو أعظم الأمراض:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠]، ولهذا جاء القرآن بالشفاء منه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]، ولن يأمن أحد يوم القيامة إلا إذا جاء سالمًا منه: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩]، وأعظم الأمراض: الشرك، وأعظم السلامة هي: السلامة منه، ولذا قال المفسرون: (بقلب سليم) يعنى سلم من الشرك.

* * *

١٠- وصاحب الشرك خائف من كل شيء:

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦]، فكان أحدهم إذا نزل بواد في سفر استعاذ بعظيم الوادي من سفهاء قومه فزادهم رهقًا. ولهذا قال الإمام أحمد لأحد الناس لما شكا إليه خوفه من بعض الأمراء فقال له أحمد: «لو صححت لم تخف» يعنى بالتصحيح استيفاء كمال التوحيد بنزع كل خوف بالقلب من غير الله تعالى وقصر خوفه على ربه تعالى فبيده الضر والنفع وهو مقدر المقادير جل في علاه.

١١- **والمشرك متمزق بين شتى أغراضه وآلهته وأسياده المختلفين المتشاكسين، بينما المؤمن الموحد مستريح القلب قد قصر توجهه على رب العالمين:** ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

* * *

وإذا تعلق الأمر - وإن كان في حِسِّنا صغيرًا - بالتوحيد والشرك فهو في القرآن قضية عظيمة.

فانظر إلى أمور قد تبدو لنا صغيرة قد أفرد لها كتاب الله تعالى حجمًا كبيرًا في الآيات، وبيان البطلان له وذلك لتعلقه بحق الله الخالص، والذى صُرف إلى غيره، سواء كان هذا الحق في التوجه لغيره تعالى بالنسك والتعبد، أو التوجه لغيره بحق التقنين والتشريع والتحليل والتحريم وذلك لبيان خطورة القاعدة وحجم الفساد الناشيء من الشرك بغض النظر عن حجم المخالفة الجزئية المستندة الى هذا الانحراف الخطير.

فانظر إلى هذه الآيات: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ

أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦-١٤٠].

ثم ناقشهم تعالى في شأن ما فعلوا وأدحض حججهم فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(١)، وخطوات الشيطان التي نهوا عن اتباعها هي خطواته في تزيينه التحليل والتحريم والتشريع والتقنين من دون الله فيشركوا ويهلكوا [الأنعام: ١٣٦-١٤٠].

ثم ناقشهم بتفصيل أكثر فقال تعالى: ﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

وليس المقصود هو ذات هذه الصور من الشرك فقط، فالقرآن نزل لإصلاح أحوال الإنسانية إلى قيام الساعة مع اختلاف الزمان والأوضاع، وإنما المقصود مع النهي عن تلك الصور هو: بيان القاعدة الشرعية وبيان أصل دين الله تعالى، وبيان ما هو الإسلام والهدى، وما هو الشرك وسفاهته والضلال الذي يلزمه دومًا.

فعلى هذا لا يجوز لأحد أن يشرع للناس ما لم يشرعه الله لهم لا في الأمور العامة ولا الخاصة ولا شأن الفرد ولا شأن الدولة وإلا فهذا نقض للتوحيد والإسلام.

* * *

ففي الشرك الأعظم شأن الذبيحة كشأن الدولة طالمًا أن الأمر يختص بحق الله تعالى الخالص.

وانظر إلى فعل قبيح كان يفعله المشركون - وهو طوافهم بالبيت عراة حتى لا يطوفوا بثياب عصوا فيها الله تعالى! فيلبسون من ثياب الحمس (القرشيين) فإن لم يجدوا طافوا عراة - وينسبون الأمر به لله تعالى استنادًا إلى ظنهم رضاه تعالى عنه لأنه لم يغيره عليهم بعذاب قدري ..

فنزلت سورة الأعراف تناقش هذا الفعل الذي يبدو صغيرًا ولكنه في ميزان الله تعالى له شأن مختلف لارتباطه بالتوحيد والشرك.

---

(١) يعني هو الذى أنشأ الجنات المعروشة وغير المعروشة، وأنشأ الأنعام الحمولة والفرش، وفي الآية التالية تفصيل ما أنشاه يعنى أنشأ ثمانية أزواج .. إلى آخر الايات الكريمة كلها معطوفة على مفعول (أنشأ) يعني (جنات) أو بدل من (الأنعام) وهو قوله (ثمانية أزواج)، (ومن الابل اثنين..).

ولننظر كيف ناقشها كتاب الله وما هو عمق هذا النقاش لأنه يريد معالجة الأصل الذي أنتج هذا الخلل وجميع الخلل في جوانب الحياة، وليهيئ الأمر لإقامة حياة جديدة بقواعد جديدة لتصحيح الأمر برمته.

* * *

ومن أجل هذا ففيما يلى نستعرض سورة الأعراف التى ناقشت هذا العمل الفاحش لننظر كيف تناولته وما هى القواعد التى جاءت فيها وربطتها بهذا الخلل ؛ سواء في ايراد سبب الخلق وايراد قصة الصراع الأولى والتى فجرت الصراع المستمر حتى اليوم مع ابليس وجنده ، وايرادها لمظاهر ربوبية الله تعالى في الكون ، وايرادها لمصارع المكذبين في الدنيا ، ومصارعهم في الآخرة، وقصة الانحراف عن التوحيد ممن استقام عليه حتى نزعت منه الريادة ، وغيرها من الحقائق والقواعد ..

ثم ننظر بعدها نظرة عامة في سورة الأنعام وننظر ما هي القضية التي تعرضها ولا تتجاوزها وإنما تتغير طريقة ومجال عرضها .. وهذان مثالان للسور المكية لتعلم طبيعة القرآن المكي عمومًا ..

أولاً: استعراض سورة الأعراف المكّية

لننظر كيف تناقش أمر التوحيد والقضايا المرتبطة به ولو كانت في حِسِّنا قضايا بسيطة وذكرها لقواعد العقيدة لإصلاح الحياة بأسرها

نزلت مقدمة سورة "الأعراف" التي تمثل قواعد في العقيدة بتحديد مصدر التلقي الوحيد، وهو أمر مباشر بالتوحيد وتنص على أن المخالفة في التلقي من الله بأن يقبل شرعًا من مصدر آخر مع الله أو من دونه شرك أعظم وهو اتخاذ للولي من دون الله:

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١-٣].

ثم التهديد بأخذهم كما أخذ مَن قبلهم لما خالفوا في هذا الحق وصرفوه لغير الله تعالى وانحرفت حياتهم كلها تبعًا لهذا الانحراف الأعظم: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤-٥].

ثم يذكر تعالى قصة الخلق والغاية منه وهو الشكر بأداء حقه من التعبد: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠].

ثم قصة الصراع التي يخوضها الإنسان مع عدوه الذي يريده أن يعبد غير الله تعالى ليورده الهلكة: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١].

ثم التحذير من عداء الشيطان وبيان خطره بالتجربة الأولى مع آدم عليه السلام ثم حذر من اتباعه في التحريم والتحليل من دون الله بالإشارة إلى اللباس الذي أنزله تعالى نعمة منه وليس لأحد أن يحرم ما أحل سبحانه: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦-٢٧].

ثم ذكر تعالى المناسبة الحاضرة في الافتراءات على الله تعالى في التشريع من دونه ونسبة رضاه عن الأمر وعالج الأمر بأنه لا يأمر بهذا فأسماؤه الحسنى وصفاته وأفعاله الحميدة تقتضي ألا يأمر بهذا سبحانه، ثم بين ما أمر به وهو إفراده بالعبادة والطاعة وإخلاص الدين يعني: إفراده بالذل والخضوع، وهذا لا يتحقق إلا بقبول شرعه وحده: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

ثم تذكر تحريم القول على الله بغير علم والشرك به تعالى، وهما متلازمان كخلل في الربوبية وخلل في الألوهية: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ثم تذكر سنة الله في الهدى: (وهو تصديق خبر الله وعبادته)، والضلال: (بتكذيب خبر الله أو رد أمره أو التعبد لسواه)، ولفروع الضلال جزء من هذا الوصف: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

ثم مصير الضُلاَّل: (مكذبين أو رادّين على الله أمره أو متعلقين بالتعبد بغيره) فرادى عند الموت: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٣٧].

ثم تذكر مصيرهم كجماعات عند دخولهم النار وبعدها: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ولهذا ينص على نوعي الخلل: التكذيب أو الاستكبار بردّ أمره فيفرق تعالى بين التكذيب (بآياتنا) والاستكبار عنها فيقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١].

ثم يذكر حال السعداء وهم مَن صدَّقوا الرسل فيما أخبروا وأطاعوهم فيما أمروا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٢-٤٣].

ويستطرد السياق ليذكر محاورتهم للكفار الندامى على شركهم.

ثم يعرض بعض أدلة الربوبية التي توجب عبادته وحده بقبول أمره وحده فيقرر أن من له الخلق فله الأمر فيهم (الأمر الشرعي والأمر القدري): ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثم يعقب بالأمر المباشر بالتوحيد: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥].

والدعاء ينتظم (دعاء المسألة، ودعاء العبادة) بمعنى العبادة كلها، بمعنى: ادعوه إلهًا، مع التضرع والخفية التي هي أقرب إلى الإخلاص.

ثم تذكر صراعات الرسل مع أممهم حول التوحيد الذي أُمر به العرب وقد انحرفوا عنه بعبادتهم لغيره وقبولهم شرع وحكم غيره، وأنهم امتداد لأمم كفرت قبل هذا كما أن رسول الله امتداد لرسل سبقوه هو والمؤمنون معه، وإذن فليخشوا عاقبة هذه الأمم بأن يكونوا مثلهم في الشرك فيكونوا مثلهم في الهلاك، فتذكر الآيات الرسل وأن رسالة كل منهم طلب العبادة لله وحده:

فذكر نوحًا: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ثم هودًا: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٠].

ثم صالحًا: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ثم لوطًا، ويبرز معه حكم تحريم الفاحشة التي انفردوا بها عن الخلق فرفضوا شريعة الله تعالى من هذا التحريم، وهذا شرك أعظم مع شركهم الوثني: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

ثم شعيبًا، وأبرز مع الأمر بالتوحيد النهي عن محرمات مالية رفضوا تحريمها؛ فرفضوا عبادة الله ورفضوا شرائعه فكان شركًا في الجانبين: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

ثم سنة الله تعالى في الأمم التي تنحرف عن التعبد له أو التقيد بشرعه أو التصديق بخبر رسله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾. [الأعراف: ٩٤-٩٥]

ثم تهديد الحاضرين الذين تركوا رسالة الله إليهم تكذيبًا أو ردًا: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

ثم تهديد مباشر للحاضرين زمن الرسول، ولمن بعدهم: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، والشرك هو: أعظم الذنوب.

ثم قصة الاستضعاف والتحدي والنصر مع موسى وقومه حينما واجه من يرفض عبادة الله تعالى رفضًا بليغًا بتكذيبه وإنكاره بل وجحوده لله تعالى عنادًا، وبرفض أمره تعالى المتضمَّن في رسالته مع موسى وأنه لا يخضع لله تعالى بما أرسل به نبيه ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المزمل: ١٦]، ويقرر أنه الرب الأعلى[1] بمعنى: أنه المشرع المقبول أمره والذي يدان له بالطاعة.

كما يعرَّف القانون في زماننا بأنه: «القانون ليس بنصيحة ولكنه أمر، وهو ليس أمرًا من أي رجل لأي رجل ولكنه أمر صادر فقط ممن يدان له بالطاعة، وموجَه إلى من تجب عليه تلك الطاعة»[2] بينما في الاسلام.. الذى يُدان له بالطاعة ويُخضع لقانونه هو الله رب العالمين وحده.

---

(١) راجع المصطلحات الأربعة للمودودي.

(٢) نظرية القانون، للدكتور فؤاد عبد الباقى، ومدخل دستوري للدكتور سيد صبري.

ويقول فقهاء القانون المعاصر: «إذ الحقيقة أن كل قاعدة قانونية تتضمن بالضرورة أمرًا بعمل شيء أو الامتناع عنه حقيقة أنه في كثير من الأحيان لا تظهر فكرة الأمر واضحة مجسمة في القاعدة القانونية، ولكن حتى في هذه الأحوال نرى فكرة الإجبار والإلزام متوافرة بالضرورة»[1].

فكان الصراع كله على تقرير لمن الخضوع والطاعة ولمن حق التشريع ولمن يُتنسك لجلاله كما يُلتزم أمره:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٦].

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ ٱلْقُوا۟ ۖ ﴾ [الأعراف: ١١٥-١١٦].

﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٩-١٢١].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٨].

﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٣].

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦-١٣٧].

ثم انحراف قوم موسى كأمة للتذكير بأنهم انحرفوا بعد استقامة ووقع منهم الشرك بعد توحيد، كذلك العرب؛ شركهم هذا بعد توحيد واستقامة كانوا عليه منذ إسماعيل وأبيه إبراهيم حتى عمرو بن لحي، وهذا للاعتبار: ﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٤٩].

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦١-١٦٢].

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

---

(١) نفس الشيء ذكره الشاطبي في "الموافقات" عن المباح وتضمنه لعنصر الإذعان. يراجع كتاب حد الإسلام للشيخ عبد المجيد الشاذلي نقلا عن د. فؤاد عبد الباقي.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ثم انحراف البشرية عن ميثاق التوحيد: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

ثم انحراف الأفراد عن العهد المأخوذ على العلماء: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

والمعنى: «أن هؤلاء اليهود انسلخوا من ميثاق الرسل بعد أن أقروا به ولا عجب في ذلك فالإنسان ينسلخ من ميثاق الفطرة بعد أن أقرَّ به وهو ملازمه لا ينفك عنه، ودعوة الرسل قد تغيب عنه بتأسيس الآباء للشرك ثم متابعتهم عليه، ولكن ميثاق الفطرة لا يمكن أن يغيب أو ينفك عنه ورغم ذلك فهو يخالفه وينسلخ منه باختياره، وإن كان ميثاق الفطرة عامًا وغير مفصل فقد ينسلخ بعض بني آدم من آيات الله أوتيت له هو ولا يمكن أن تغيب عنه كميثاق الرسل بعدم بلوغ الدعوة أو لشيوع الجهل والتقليد وليست عامة كميثاق الفطرة الذي قد لا يكون واضحًا له غير مفصل ولا محكم، وذلك للإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى، ولو شاء الله لعصمهم من هذا الانسلاخ ولكنه تركهم للابتلاء تبعًا لسنته في الهدى والإضلال»[1].

ثم الهدى لحق الله الخالص أو الضلال عنه: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

ثم طبيعة أصحاب النار من المشركين الذين حُرموا من عبادة الله وحده: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثم التذكير، والأمر بالتفكر، والتهديد بالموت لقبول أمر الله المضمَن في رسالته: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٤-١٨٥].

ثم التهديد بالساعة لنفس الغرض: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

---

(١) البلاغ المبين، للشيخ عبد المجيد الشاذلي، جـ ٣، ص ٨٤٠.

وبيان محدودية علم الرسول إلى جنب علم الله تعالى وقدرته كبشر، لتجريد الربوبية والألوهية لله تعالى وحده وعدم الخلط بين الربوبية وحقها من الألوهية من جانب وبين بشرية الرسول من جانب آخر: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ثم قصة الخلق مرة ثانية وبث الخلق وانحرافهم إلى الشرك على وجه الإجمال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

ثم التحدي معهم بالتوحيد وتعرية مَن لا يَد له ولا رِجْل ولا سمع ولا بصر ويُسمى إلهًا !!: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

ثم الثقة بالله تعالى ومواجهتهم بحوله وتولّيه وحده كأحد أفراد العبادة: ﴿ إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ثم الخُلُق الرفيع الذي حاز المكارم كلها واللائق بعبد الله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ثم أهمية القرآن ـ كتاب الدعوة ـ ووجوب استماعه بإنصات وتدبر: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم إفراد الله تعالى بالعبادة والتسبيح والتنزيه عن الشرك .. مشاركة للملأ الأعلى في عبادتهم وتوحيدهم وإفرادهم ربهم بحقه من التعظيم والتسبيح والعبادة، والتنزيه عما لا يليق من الوصف، وما لا يليق من العمل بالتوجه لغيره أو الاستكبار على أمره: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

* * *

كانت المناسبة الحاضرة لكل هذه الأمور والحقائق العظيمة والتي حشدت في هذه السورة المباركة كانت المناسبة فعلة يفعلها المشركون قد يستصغرونها لكن لما كانت مستندة إلى الأصل الخطأ والباطل وهو صرف حق الله ـ في التشريع ـ إلى غيره بل والافتراء عليه في رضاه عنها وارتباط هذا الشرك بنوع آخر من الشرك وهو التعبد بالنسك القلبي: (من الحب والخوف والرجاء والتعلق وغيره ..)، والنسك الظاهر: (من الدعاء والذبح والتقرب وغيره ..) إلى غير الله تعالى.

لما كان الأمر كذلك ناقش القرآن فاحشة الطواف بالبيت عراة بهذه الطريقة.

وأرجو مراجعة سورة الأعراف وقراءتها مرة أخرى بعد هذا التوضيح لملاحظة الأمر واستبانته، ولنعرف أن السورة كلها تدور حول التوحيد ولو كان السبب في كل هذه الأمور قد يبدو هينًا عند من لا يعرف قيمة الانحراف بالشرك أو قد يستصغره الناس لكنه عظيم لما يستند إليه من القواعد.

ثانيًا: استعراض سورة الأنعام لننظر القضية التى تناولتها ولم تتجاوزها وإنما تغيرت طريقة عرض نفس القضية وتنوعت مجالات عرضها

فليست سورة "الأعراف" فقط بل سور كثيرة فجملة سورة "الأنعام" كلها في التوحيد وتقريره بل إنها نصت على أركان توحيد العبادة الثلاثة:

ففي أولها النص على إفراده تعالى بالولاء: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤].

وفي أوسطها النص على إفراده بالحكم - يعني: التشريع وقبول الأحكام - فقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وفي آخرها إفراده تعالى بالنسك والصلاة وسائر التعبدات[1] فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وذكر فيها شق الربوبية: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

يقول ابن القيم وهو يتكلم عن الرضا: «فصل، قال: وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: رضى العامة وهو الرضى بالله ربًا وتسخط عبادة ما دونه وهذا قطب رحى الإسلام وهو يطهر من الشرك الأكبر.

الرضى بالله ربًا: أن لا يتخذ ربًا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيدًا وإلهًا يعني: فكيف أطلب ربًا غيره وهو رب كل شيء، وقال في أول السورة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾، أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه وهذا كتابه سيد الحكام فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلاً مبينًا كافيًا شافيًا.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً، ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربًا ولا يبغي ربًا سواه لكنه لا يرضى به وحده وليًا وناصرًا بل يوالي من دونه أولياء ظنًا منه أنهم يقربونه إلى الله وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء، وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين

---

(١) إما على أن النسك هو: التعبد بمعناه الخاص، يعني: ما لا يعقل معناه على الخصوص.
أو على أن النسك هو الذبح ويكون الذبح والصلاة تمثيلاً للعام ــ وهو العبادة بمعناها الخاص ــ ببعض أفراده.
فعلى الوجهين المقصود بالصلاة والنسك هو التعبد بمعناه الخاص يعني: المفارق للعادات والمعاملات.

فيه فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته، فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه؛ فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه»(١).

ونص فيها على المواجهة والإشهاد في شأن التعبد والتنسك له تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

ونص كذلك على المواجهة والإشهاد في شأن التشريع وبنفس الألفاظ تقريبًا مع مغايرة ركن التوحيد العملي من النسك إلى التشريع والتحريم والتحليل: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

والنص على أن ترك الأحكام الربانية والتلقي من غيره ولو حكمًا واحدًا بأنه شرك: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وسبب نزولها يقول ابن كثير: «وقال الطبراني: حدثنا عليّ بن المبارك حدثنا زيد بن المبارك حدثنا موسى بن عبد العزيز حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدًا وقولوا له: فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب (يعني: الميتة) فهو حرام؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش.

وقال ابن جريج: قال عمرو بن دينار عن عكرمة: أن مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم وكاتبتهم فارس فكتبت فارس إليهم: إن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكلونه وما ذبحوه هم يأكلونه؟ فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب رسول الله ﷺ فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، ونزلت: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وقال السدي: في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟ فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فأكلتم الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وهكذا قاله مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف»(٢).

وتفسير ابن كثير لها يقول: «أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقد روى

(١) مدارج السالكين، جـ ٢، صفحة ١٨١.
(٢) تفسير ابن كثير.

الترمذي: في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم فقال: بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»[١].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير .. وكلاهما يقرر في حسم وصرامة ووضوح ـ مستمدة من حسم النص القرآني وصرامته ووضوحه، ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك ـ أن من أطاع بشرًا في شريعة من عند نفسه، ولو في جزئية صغيرة، فإنما هو مشرك. وإن كان في الأصل مسلمًا ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضًا .. مهما بقي بعد ذلك يقول: أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه. بينما هو يتلقى من غير الله، ويطيع غير الله»[٢].

* * *

نظرة عامة على القرآن المكي وكيف تناول أمر التوحيد:

ولنعرف طبيعة القرآن المكي عمومًا ننقل بعض ما كتب الأستاذ سيد قطب عن هذا الأمر في أول سورة مكية في ترتيب المصحف وهي هذه السورة المباركة سورة الأنعام فعن سورة الأنعام خصوصًا وعن القرآن المكي وخصائصه عمومًا، في عرضه التوحيد في مجالات شتى من الكون للنفس الإنسانية إلى الآخرة إلى قصص الأولين وغيرها، وعلى وجه الإجمال يقول الأستاذ سيد قطب:

البداية بالعقيدة والتوحيد:

«هذه السورة مكية .. من القرآن المكي .. القرآن الذي ظل يتنزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عامًا كاملة، يحدثه فيها عن قضية واحدة. قضية واحدة ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة، إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان، وأنها استقرت استقرارًا مكينًا ثابتًا في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسان، التي قدر الله لها أن يقوم هذا الدين عليها؛ وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين.

وأصحاب الدعوة إلى دين الله، وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة؛ خليقون أن يقفوا طويلاً أمام هذه الظاهرة الكبيرة .. ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عامًا .. لتقرير هذه العقيدة؛ ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها ..

لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة. وأن يبدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته في الدعوة، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله؛ وأن يمضي في دعوته يعرف الناس بربهم الحق، ويعبدهم له دون سواه.

ولم تكن هذه ـ في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب ـ هي أيسر السبل إلى قلوب العرب! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى: "إله" ومعنى: "لا إله إلا الله" .. كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا .. وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله ـ سبحانه ـ بها، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام، ورده كله إلى الله .. السلطان على الضمائر، والسلطان على الشعائر، والسلطان على واقعيات الحياة .. السلطان في المال، والسلطان في القضاء، والسلطان في الأرواح والأبدان ..

---

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن.

كانوا يعلمون أن: "لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي، الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب؛ وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله .. ولم يكن يغيب عن العرب - وهم يعرفون لغتهم جيدًا، ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة: "لا إله إلا الله" ـ ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم .. ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة - أو هذه الثورة - ذلك الاستقبال العنيف، وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام ..

فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة؟ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء؟».

استعراض البدائل أمام الرسول ﷺ للبداية بها بدلاً من التوحيد:

يقول رحمه الله: «لقد بعث رسول الله ﷺ بهذا الدين، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب؛ إنما هي في يد غيرهم من الأجناس!.

وبعث رسول الله ﷺ بهذا الدين، والمجتمع العربي كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعًا للثروة والعدالة.

وبعث رسول الله ﷺ والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأسفل في جوانب منه شتى - إلى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية.

فلما تقررت العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة .. لما عرف الناس ربهم وعبدوه وحده .. لما تحرر الناس من سلطان العبيد، ومن سلطان الشهوات سواء .. لما تقررت في القلوب: "لا إله إلا الله" .. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون ..

تطهرت الأرض من الرومان والفرس .. لا ليتقرر فيها سلطان العرب .. ولكن ليتقرر فيها سلطان الله .. لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانيًا وفارسيًا وعربيًا على السواء.

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته. وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله، ويزن بميزان الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده؛ ويسميها راية الإسلام، لا يقرن إليها اسمًا آخر؛ ويكتب عليها: "لا إله إلا الله"!.

وتطهرت النفوس والأخلاق، وزكت القلوب والأرواح؛ دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله - إلا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هنالك في الضمائر؛ ولأن الطمع في رضى الله وثوابه، والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات ..

وارتفعت البشرية في نظامها، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها، إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط؛ والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام ..

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام؛ كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك. وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعدًا واحدًا، لا يدخل فيه الغلب والسلطان .. ولا حتى لهذا الدين على أيديهم .. وعدًا واحدًا لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا .. وعدًا واحدًا هو الجنة .. هذا كل ما وعدوه على الجهاد المضني، والابتلاء الشاق، والمضي في الدعوة، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان، في كل زمان وفي كل مكان، وهو: "لا إله إلا الله"!.

فلما أن ابتلاهم الله فصبروا؛ **ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم**؛ ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض ـ كائنًا ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم ـ ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض. ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت ..

لما أن علم الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا ـ إذن ـ أمناء على هذه الأمانة الكبرى. أمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال .. وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها، وعلى عدل الله يقيمونه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم؛ إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته، لأنهم يعلمون أنه من الله، هو الذي آتاهم إياه.

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع، إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء، وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها .. راية "لا إله إلا الله" .. ولا ترفع معها سواها .. وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره؛ المبارك الميسر في حقيقته.

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله، لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية، أو دعوة اجتماعية، أو دعوة أخلاقية .. أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد: "لا إله إلا الله".

سبب إعطاء التوحيد مساحة كبيرة قبل تفاصيل الشرائع ، مع بقاء الدلالة من هذا في كل واقع بإعطاء التوحيد نفس هذه المساحة في دين الله والبداية به في الاصلاح مع شمول التوجيه بالدين كله لأن الشريعة اكتملت ولا يجوز ترك شيء منها .. دقّ أو جلّ:

يقول رحمه الله: «فأما شأن هذا القرآن في تناول قضية الاعتقاد وحدها، دون التطرق إلى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والشرائع التي تنظم المعاملات فيها .. فذلك كذلك مما ينبغي أن يقف أمامه أصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية ..

إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا .. فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة .. كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير .. وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلال المتشابكة الأغصان، الضاربة في الهواء .. لابد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة، وفي مساحات واسعة؛ تناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء .. فكذلك هذا الدين .. إن نظامه يتناول الحياة كلها؛ ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها؛ وينظم حياة الإنسان لا في هذه الحياة الدنيا وحدها، ولكن كذلك في الدار الآخرة؛ ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها؛ ولا في المعاملات الظاهرة المادية، ولكن في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا .. فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية .. ولابد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضًا.

ولابد أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من السلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع في هذا المجتمع؛ حتى تكون للنظام هيبته ويكون للشريعة جديتها .. فوق ما يكون لحياة هذا المجتمع من الواقعية ما يقتضي الأنظمة والشرائع من فورها.

والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم. وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله .. ومن ثم لم ينزل الله في هذه الفترة تنظيمات وشرائع؛ وإنما نزل لهم عقيدة، وخلقًا منبثقًا من العقيدة بعد استقرارها في الأعماق البعيدة .. فلما صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع؛ وتقرر لهم النظام؛ الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية؛ والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفاذ ..

ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة، ليختزنوها جاهزة، حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة! إن هذه ليست طبيعة هذا الدين! إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية! إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولاً .. إنما هو يواجه الواقع بحجمه وشكله وملابساته لصوغه في قالبه الخاص، وفق حجمه وشكله وملابساته.

كلا .. لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما في وجوده هو وبما في الوجود من حوله من دلائل وإيحاءات .. كان يستنفذ فطرته من الركام؛ ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها؛ ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها .. والسورة التي بين أيدينا نموذج كامل من هذا المنهج المتفرد وسنتحدث عن خصائصها بعد قليل ..».

التلازم بين المفهوم والحركة الواقعية في المجتمع:

يقول رحمه الله: «هذا بصفة عامة. وبصفة خاصة كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية .. كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة .. في نفوس آدمية حاضرة واقعة .. ومن ثم لم يكن شكل "النظرية" هو الشكل الذي يناسب هذا الواقع الحاضر. إنما كان هو شكل المواجهة الحية للعقابيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية .. ولم يكن الجدل الذهني الذي انتهجه ـ في العصور المتأخرة ـ علم التوحيد، هو الشكل المناسب كذلك .. فلقد كان القرآن يواجه واقعًا بشريًا كاملاً بكل ملابساته الحية؛ ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها في خضم هذا الواقع .. وكذلك لم يكن "اللاهوت" هو الشكل المناسب. فإن العقيدة الإسلامية ولو أنها عقيدة، إلا أنها عقيدة تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي؛ ولا تقبع في الزاوية الضيقة التي تقبع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية!.

كان القرآن وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها؛ كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها وأخلاقها وواقعها .. ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة، لا في صورة نظرية، ولا في صورة لاهوت ولا في صورة جدل كلامي .. ولكن في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة، ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها. وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي، وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور، وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها .. كان هذا النمو ذاته ممثلاً تمامًا لنمو البناء العقيدي، وترجمة حية له .. وهذا هو منهج الإسلام الذي يمثل طبيعته كذلك.

إن التصور الإسلامي للألوهية وللوجود الكوني وللحياة وللإنسان، تصور شامل كامل. ولكنه كذلك تصور واقعي إيجابي. وهو يكره ـ بطبيعته ـ أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي. لأن هذا يخالف

طبيعته وغايته. ويجب أن يتمثل في أناسي، وفي تنظيم حي، وفي حركة واقعية .. وطريقته في التكون أن ينمو من خلال الأناسي والتنظيم الحي والحركة الواقعية؛ حتى يكتمل نظريًا في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعيًا؛ ولا ينفصل في صورة نظرية؛ بل يظل ممثلاً في الصورة الواقعية ..

وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي، ولا يتمثل من خلاله، هو خطأ وخطر كذلك بالقياس إلى طبيعة هذا الدين، وغايته، وطريقة تركيبه الذاتي.

والله سبحانه يقول: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾، فالفرق مقصود. والمكث مقصود كذلك .. ليتم البناء التكويني المؤلف من عقيدة في صورة "منظمة حية" لا في صورة "نظرية معرفية"!».

«هذه السورة ـ وهي أولى السور المكية التي نتعرض لها هنا في سياق هذه الظلال ـ نموذج كامل للقرآن المكي الذي تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه؛ وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه، في موضوعها الأساسي، وفي منهج التناول، وفي طريقة العرض سواء ..

ذلك مع احتفاظها "بشخصيتها" الخاصة؛ وفق الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن؛ والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة .. فلكل سورة شخصيتها، وملامحها، ومحورها، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي؛ والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض؛ والصور والظلال والجو الذي يظللها؛ والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها؛ وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها .. حتى وهي تتناول موضوعًا واحدًا أو موضوعات متقاربة. فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية السورة؛ ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها!.

وهذه السورة ـ مع ذلك ـ تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة .. إنها في كل لمحة منها وفي كل موقف، وفي كل مشهد، تمثل "الروعة الباهرة" .. الروعة التي تبده النفس، وتشده الحس، وتبهر النفس أيضًا؛ وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعها وموحياتها مبهورًا!».

مجالات عرض التوحيد في سورة الأنعام خصوصًا وفي القرآن المكي عمومًا:

يقول رحمه الله :«إنها ـ في جملتها ـ تعرض "حقيقة الألوهية" .. تعرضها في مجال الكون والحياة، كما تعرضها في مجال النفس والضمير، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود، كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون .. وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية، كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين .. وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون، وتواجه الأحداث، وتواجه النعماء والضراء، كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة، وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة .. وأخيرًا تعرضها في مشاهد القيامة، ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ربها الخالق ..

إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة، بكل مقوماتها وبكل مكوناتها. وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية، وتطوف بها في الوجود كله، وراء ينابيع العقيدة وموحياتها المستسرة والظاهرة في هذا الوجود الكبير .. إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السماوات والأرض، تلحظ فيها

الظلمات والنور، وترقب الشمس والقمر والنجوم. وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها؛ وتقف بها على مصارع الأمم الخالية، وآثارها البائدة والباقية. ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر، وأسرار الغيب والنفس، والحي يخرج من الميت والميت يخرج من الحي، والحبة المستكنة في ظلمات الأرض، والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم. ثم تموج بالجن والإنس، والطير والوحش، والأولين والآخرين، والموتى والأحياء، والحفظة على النفس بالليل والنهار ..

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس، وأقطار الحس .. ثم إنها اللمسات المبدعة المحيية، التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال .. وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر، جديد نابض، كأنما تتلقاه النفس أول مرة؛ وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان!.

وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة. ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها، متشابكة معها؛ في المجرى المتصل المتدفق!.

وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة، تبلغ حد "الروعة الباهرة" التي وصفنا ـ مع تناسق منهج العرض في شتى المشاهد كما سنبين ـ وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة، وبالحيوية الدافقة، وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة!.

ونحن ـ سلفًا ـ على يقين أننا لسنا ببالغين شيئًا في نقل إيقاعات هذه السورة إلى أي قلب إلا بأن ندع السورة ذاتها تنطلق بسياقها الذاتي، وإيقاعها الذاتي، إلى هذا القلب .. لسنا ببالغين شيئًا بالوصف البشري والأسلوب البشري .. **ولكنها مجرد المحاولة لإقامة القنطرة بين المعزولين عن هذا القرآن ـ بحكم بعدهم عن الحياة في جو القرآن ـ وبين هذا القرآن!.**

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية [1].. قضية الألوهية والعبودية .. تعالجها بتعريف العباد برب العباد .. من هو؟ ما مصدر هذا الوجود؟ ماذا وراءه من أسرار؟ من هم العباد؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود؟ من أنشاهم؟ من يطعمهم؟ من يكفلهم؟ من يدبر أمرهم؟ من يقلب أفئدتهم وأبصارهم؟ من يقلب ليلهم ونهارهم؟ من يبدئهم ثم يعيدهم؟ لأي شيء خلقهم؟ ولأي أجل أجلهم؟ ولأي مصير يسلمهم؟ .. هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك .. من بثها في هذا الموات؟ .. هذا الماء الهاطل. هذا البرعم النابغ. هذا الحب المتراكب. هذا النجم الثاقب. هذا الصبح البازغ. هذا الليل السادل. هذا الفلك الدوار .. هذا كله من وراءه؟ وماذا وراءه من أسرار، ومن أخبار؟ .. هذه الأمم، وهذه القرون، التي تذهب وتجيء، وتهلك وتستخلف .. من ذا يستخلفها؟ ومن ذا يهلكها؟ لماذا تستخلف؟ ولماذا يدركها البوار؟ وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء؟؟؟.

هكذا تطوف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق، وفي هذه الأغوار والأعماق .. ولكنها تمضي في هذه كله على منهج القرآن المكي ..».

---

(١) كبقية القرآن المكي.

«.. إنها لا تهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار .. إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق؛ لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق. تعبيد ضمائرهم وأرواحهم، وتعبيد سعيهم وحركتهم، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد .. سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء ..».

«.. ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد .. من أولها إلى آخرها .. فالله هو الخالق. والله هو الرازق. والله هو المالك. والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان. والله هو العليم بالغيوب والأسرار. والله هو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار .. وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد؛ وألا يكون لغيره نهي ولا أمر، ولا شرع ولا حكم، ولا تحليل ولا تحريم. فهذا كله من خصائص الألوهية، ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله، لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت، ولا يضر ولا ينفع، ولا يمنح ولا يمنع، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة ..

وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة؛ والتي تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية، من كل درب ومن كل باب!».

عِظم حجم ومساحة قضية التوحيد في القرآن وفي هذا الدين بغض النظر عن حجم المناسبات التطبيقية الحاضرة لها في البيئة المحيطة به في أي زمان أو مكان سواء تعلقت بشأن ذبيحة أو شأن دولة:

يقول رحمه الله: «والقضية الكبيرة التي تعالجها السورة هي قضية الألوهية والعبودية في السماوات والأرض. في محيطها الواسع، وفي مجالها الشامل .. ولكن المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك، المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة، هي ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم، ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد .. وهي المناسبة التي تتحدث عنها هذه الآيات في أواخر السورة: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

هذه هي المناسبة الحاضرة في حياة الأمة المسلمة ـ والجاهلية حولها ـ التي تتمثل فيها تلك القضية الكبيرة .. قضية التشريع .. ومن ورائها القضية الكبرى .. قضية الألوهية والعبودية التي تعالجها السورة كلها، ويعالجها القرآن المكي كله، كما يعالجها القرآن المدني أيضًا كلما جاء ذكر النظام فيه وذكر التشريع.

والحشد الذي يتدفق به سياق السورة من التقريرات والمؤثرات، وهو يواجه الجاهلية وأهلها في أمر هذه الأنعام والذبائح والنذور ـ وهي المناسبة التي تتمثل فيها قضية حق التشريع ـ وربطها بقضية العقيدة كلها ـ قضية الألوهية والعبودية ـ وجعلها مسألة إيمان أو كفر، ومسألة إسلام أو جاهلية .. هذا الحشد ـ على النحو الذي سنحاول أن نستعرض نماذج منه في هذا التعريف المختصر بالسورة، والذي سيتجلى على حقيقته في المواجهة التفصيلية للنصوص في السياق بعد ذلك ـ **يوقع في النفس تلك الحقيقة الأصيلة في طبيعة هذا الدين. وهي أن كل جزئية صغيرة في الحياة الإنسانية يجب أن تخضع خضوعًا مطلقًا لحاكمية الله المباشرة، الممثلة في شريعته. وإلا فهو الخروج من هذا الدين جملة من أجل الخروج على حاكمية الله المطلقة في تلك الجزئية الصغيرة.**

كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التي ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر ـ جل أم حقر، كبر أم صغر ـ وربط أي شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين .. وهو حاكمية الله المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض، كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك.

إن سياق السورة يعقب على تلك الشعائر الجاهلية في شأن الأنعام والثمار، والنذور منها ومن الأولاد تعقيبات منوعة. بعضها مباشر، لتصوير مدى السخف والتناقض في هذه الشعائر، وبعضها للربط بين مزاولة البشر لحق التحريم والتحليل وقضية العقيدة الكبرى، ولبيان أن اتباع أمر الله فيها هو صراطه المستقيم، الذي يخرج من لا يتبعه عن هذا الدين .. على النحو التالي بعد ذكر تلك الشعائر في الآيات السابقة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

كذلك نرى أن هذه المسألة الجزئية الخاصة بالتحريم والتحليل في الأنعام والنذور في الأنعام والثمار، وفي الأولاد ـ على ما كان متبعًا في الجاهلية ـ يربطها السياق بتلك القضايا الكبيرة: بالهدى والضلال. واتباع منهج الله أو اتباع خطوات الشيطان، وبرحمة الله أو بأسه وبالشهادة بوحدانية الله أو عدل غيرها به. وباتباع صراطه مستقيمًا أو التفرق عنه. ويستخدم نفس التعبيرات التي استخدمها وهو بصدد القضية الكبرى في محيطها الشامل ..

كما نراه يحشد لها من المؤثرات والموحيات ـ في هذا الموضع وحده ـ مشهد الخلق والإحياء في الجنات المعروشات وغير المعروشات. ومشهد النخل والزرع مختلفًا ألوانه والزيتون والرمان متشابهًا وغير متشابه.

وموقف الإشهاد والمفاصلة. وموقف البأس والتدمير على المشركين ..

وهي ذات المشاهد التي حشدها السياق في السورة كلها من قبل، وهو يتناول قضية العقيدة بجملتها، قبل أن يتعرض لهذه المناسبة الخاصة التي تتمثل فيها. ولكل هذا دلالته التي لا تخطئ على طبيعة هذا الدين، ونظرته لقضية الحاكمية والتشريع في الكثير والقليل ..

ونحن نبين منهجها الموضوعي وهي تتناول قضية العقيدة بجملتها، في مواجهة مناسبة جزئية تتعلق بأمر التشريع والحاكمية. وهي المناسبة التي لا نقول: إنها اقتضت ذلك الحشد المتجمع المتدفق من التقريرات والتأثيرات في سياق السورة كله، وهذا البيان الرائع الباهر لحقيقة الألوهية في مجالها الواسع الشامل. ولكننا نقول: إنها المناسبة التي ربطت في سياق السورة بهذا كله؛ فدل هذا الربط على طبيعة هذا الدين؛ ونظرته لقضية التشريع والحاكمية في الكبير والصغير، وفي الجليل والحقير من شؤون هذه الحياة الدنيا .. كما أسلفنا ..».

«.. والواقع أن سياق السورة في تماسكه وفي تدافعه وفي تدفقه يوقع في القلب أن هذه السورة نهر يتدفق، أو سيل يتدفع، بلا حواجز ولا فواصل؛ وإن بناءها ذاته ليصدق تمامًا هذه الروايات ..

روى أبو بكر بن مردويه ـ بإسناده ـ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج»، ورسول الله يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم».

هذا الموكب، وهذا الارتجاج، واضح ظلهما في السورة! .. إنها هي ذاتها موكب. موكب ترتج له النفس، ويرتج له الكون! .. إنها زحمة من المواقف والمشاهد والموحيات والإيقاعات! .. وهي ـ كما قلنا من قبل ـ تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة. ما تكاد الموجه تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها، ومتشابكة معها، في المجرى المتصل المتدفق!.

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه متصل؛ فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع، كل مقطع منها يعالج جانبًا من الموضوع .. إنما هي موجات .. وكل موجة تتفق مع التي قبلها وتكملها ..».

«.. إن تقرير حقيقة الألوهية، وتعريف الناس بربهم الحق، وتعبيدهم له وحده، هو الموضوع الأساسي للسورة. فلنسمع إذن تقرير السياق القرآني لهذه الحقيقة في مواقف منه شتى:

في موقف الإشهاد والمفاصلة، حيث تتجلى تلك الحقيقة في القلب المؤمن بها؛ وحيث يواجه بها المخالفين، ويصدع بها في قوة وفي يقين: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾.

وفي موقف التهديد، حيث يتجلى سلطان الله محيطًا بالعباد؛ وتتعرى أمامه الفطرة ويسقط عنها الركام، وتتجه إلى ربها الحق وحده وتنسى الآلهة الزائفة، أمام الهول، وأمام مصارع المكذبين: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

وفي موقف التعريف بإحاطة الله بالغيوب والأسرار، والأنفاس والأعمار، مع القدرة والقهر والسيطرة في البر والبحر، والنهار والليل، والدنيا والآخرة، والحياة والممات: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾.

وفي موقف شهادة الفطرة، واهتدائها الذاتي إلى ربها الحق، بمجرد تفتحها لاستقبال دلائل الهدى وموحياته في صفحات الكون، التي تخاطب الفطرة بلسان مفهوم الإيقاع في أعماقها المكنونة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ ﴾.

وفي مشهد الحياة النابضة في الفصائل والأنواع، ومشهد الإصباح والإمساء، ومشهد النجوم والظلمات في البر والبحر، ومشهد الماء الهاطل، والزرع النامي، والثمر اليانع .. حيث تتجلى وحدانية الخالق بلا شريك، المبدع بلا شبيه، وحيث تبدو دعوى الشركاء والأبناء سخفًا تنكره العقول والقلوب: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾.

وأخيرًا في موقف الابتهال والإنابة إلى الله الواحد بلا شريك، والتجرد له صلاةً ونسكًا، ومحيًا ومماتًا، واستنكار ابتغاء غيره ربًا وهو رب كل شيء، وردّ الأمر إليه كله في الدنيا في أمر الاستخلاف والابتلاء، وفي الآخرة في أمر الحساب والجزاء، حيث تختم السورة بهذا الابتهال الخاشع المنيب: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾»[1].

* * *

وهذه الخواص التي ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه الله موجودة في غالب سور القرآن المكي.

* * *

وسورة الكافرون، ويونس وهود والزمر، وسورة النحل ـ وسيأتي نظرة عامة عليها في فصل لاحق ـ وأغلب القرآن المكي يدور على التوحيد بخاصية فريدة أنه يعالج نفس الموضوع لكن كانت كل سورة كأنها لأول مرة تتكلم عن التوحيد، فكل مدخل جديد فريد من نوعه[2].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مقدمة سورة الأنعام.
(٢) يراجع الظلال.

بل القرآن كله إنما هو في تقرير التوحيد وحقوقه وجزائه في الدنيا من النصر والتمكين، وفي الآخرة .. الجنة، والتحذير من الشرك وآثاره وجزائه في الدنيا من الخزي والأخذ الإلهي، وفي الآخرة .. النار.

يقول ابن القيم بعد ما تكلم عن مآخذ المتكلمين المنحرفة والمختلفة في التوحيد:

«فصل، وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فوراء ذلك كله.

وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في المطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوه فوق سمواته على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه.

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح كما في أول سورة الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر وأول سورة تنزيل (السجدة) وأول سورة آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة "قل يا أيها الكافرون"، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يونس ووسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام وغالب سور القرآن.

بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد بل نقول قولاً كليًا: **إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه** فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد؛ فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[1].

ويقول الشيخ سليمان بن عبد الله: «وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك في الله، كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسول الله ﷺ من معاني الكتاب والحكمة، فهو أول واجب وآخر واجب، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» حديث صحيح، وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»، متفق عليه.

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال، بحيث إن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد»[2].

ويقول الشيخ عبد اللطيف: «والقرآن عامته إنما هو في تقرير هذا الأصل العظيم الذي هو أصل الأصول»[3].

---

(١) مدارج السالكين، جـ٣، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.
(٢) تيسير العزيز الحميد.
(٣) منهاج التأسيس والتقديس.

الخطاب التفصيلي في الأحكام والأخلاق في السور المكية والمدنية

وعندما انتقل الخطاب إلى الأحكام التفصيلية لم يترك التوحيد بل انتقل به إلى غيره من الأحكام والأخلاق والتوجيهات التي يسميها ابن القيم: (حقوق التوحيد ومكملاته)، ويسميها ابن حجر (متعلقات التوحيد) أو كما يسميها كثير من أهل السنة (الإيمان الواجب).

فنادانا باسم الإيمان المجمل وهو التوحيد فيقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، يقول ابن عباس: (هم الذين صدقوا الرسل فيما أخبروا وأطاعوهم فيما أمروا).

وهما شقا التوحيد: الربوبية والألوهية، أو العلم بالله والعمل بالخضوع له، وهذا هو العمل في أصل الدين (قبول شرع الله ورفض شرع ما سواه).

فكان الخطاب بالإيمان المجمل لتحقيق الإيمان الواجب من أحكام الدين وفروعه من الفرائض والمحرمات وهو واضح في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ.. ﴾ [النساء: ١٣٦].

بل ويرجع السياق كثيراً أثناء الأحكام التفصيلية ليعلق الخطاب بشرط التوحيد:

﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [الطلاق: ٢].

﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [النور: ٢].

فيبدأ الخطاب باسم التوحيد وهو الإيمان المجمل يعني: (أصل الإيمان) لتحقيق الإيمان الواجب.

ويعود فيعلق الخطاب بهذا الشرط كما علق العمل عمومًا بنفس هذا الشرط: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

فترى أن الخطاب القرآني لم ينتقل من التوحيد إلى تفاصيل التشريع بل قد انتقل به.

وفارق كبير ومهم بين الأمرين يجب أن يلاحَظ.

* * *

الايمان المجمل هو التوحيد بشقيه الخبرى والعملى:

وننقل عن شيخ الإسلام تعريف للإيمان المجمل بأنه التوحيد، يقول رحمه الله:

«وقد بيَّن فيه التوحيد الذي بعث الله به رسوله قولاً وعملاً. فالتوحيد القولي مثل سورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، والتوحيد العملي: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الفجر والطواف وغير ذلك، وقد كان أيضًا يقرأ في ركعتي الفجر وركعتي الطواف في الركعة الأولى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾، وفي الثانية: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾، فإن هاتين الآيتين فيهما دين الإسلام وفيهما الإيمان القولي والإيمان العملي، فقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ

أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، يتضمن الإيمان القولي والإسلام، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، يتضمن الإسلام وهو الإيمان العملي فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده: الإسلام والإيمان»[١].

ويقول ابن تيمية في رسالة "النبوات":

«والله أرسل رسوله بالإسلام والإيمان بعبادة الله وحده وتصديق الرسول فيما أخبر، فالأعمال: عبادة الله، والعلوم: تصديق الرسول. وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وتارة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، فإنها تتضمن الإيمان والإسلام، وبالآية من آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾»[٢].

ويقول في موضع آخر من نفس الرسالة:

«والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به وذلك عبادة الله وحده لا شريك له فهذا هو السعادة وذلك إنما يكون بأمرين بتصديق الرسل وبطاعتهم. فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين: الإسلام والإيمان أو عبادة الله وحده وتصديق رسله. وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، قال أبو العالية: هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد، يقال: من كنت تعبد وبماذا أجبت المرسلين»[٣].

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «إن أصل دين الإسلام وأساسه، وعماد الإيمان ورأسه، هو توحيد الله تعالى الذي بعث به المرسلين، وأنزل به كتابه المحكم المبين قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، وهذا هو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله»[٤].

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ص١٥٨.
(٢) رسالة النبوات، ص ١١٦.
(٣) يراجع باستفاضة في هذا كتاب حد الإسلام للشيخ عبد المجيد الشاذلي.
(٤) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية.

تتبُع كيف انتقل السياق المدنى - وبعض المكي كذلك - بالتوحيد الى تفاصيل الشرائع وبيان أنه لم يترك الخطاب عن التوحيد بل انتقل به الى غيره

ولمعرفة كيف انتقل السياق بالتوحيد لغيره من تفاصيل الأحكام ليخاطب باسمه ويعلق القبول عليه ومن ثَمَّ يحضض على الالتزام بوجوده في قلب المخَاطَبين .. ننظر في بعض الأمثلة:

في سورة الطلاق أو النساء الصغرى تتكلم عن الطلاق والمراجعة وأنواع العدة ..

وفيها هذه الإشارات:

١ - ربط الأحكام بالتوحيد: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فهي تذكر به وتحضض باسمه.

٢ - وبعد إيراد جملة الأحكام قال تعالى بعدها محذرًا من ردّ أوامره، ليربط الأحكام بأصلها من التوحيد الذي هو أصل الإيمان: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨]، وهذا لمن ردّ أمر الله، وليس مجرد المخالفة، فهذه هي معصية القرى التي أهلكت؛ فالله تعالى يصف فرعون بالمعصية: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦].

بل ويصفه هو ومن قبله من قوم نوح وعاد وثمود ومدين، ويخص قوم لوط بوصف "المؤتفكات" .. بأنهم عصوا رسول ربهم، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩-١٠]، ويقول في سورة الجن: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

والخلود فقط لا يقتضي الكفر، فقد أوعد الله تعالى قاتل النفس بالخلود، وقتل النفس ليس كفرًا، وإن كان من أكبر الكبائر، فلما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فسر الصحابة ومن بعدهم الخلود: بطول المكث، أما التأبيد مع الخلود فهو لا يكون إلا للكفار، يقول شيخ الإسلام:

«وكذلك لفظ المعصية والفسوق والكفر فإذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، فأطلق معصيتهم للرسل بأنهم عصوا هودًا معصية تكذيب لجنس الرسل فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال: ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾، ومعصية من كذب وتولى قال تعالى: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وإنما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال في فرعون: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾، وقال عن جنس الكافر: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، فالتكذيب للخبر والتولي عن الأمر وإنما الإيمان تصديق الرسل فيما اخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾.

ولفظ التولي بمعنى: التولي عن الطاعة مذكور في مواضع من القرآن كقوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وذمه في غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وأن الأمر المطلق يقتضي وجوب الطاعة وذم المتولي عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية في مثل قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾، وقد قيل أن التأبيد لم يذكر في القرآن إلا في وعيد الكفار، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾»[1].

فمن هذا نعلم أن المعصية التي ترتبط بالخلود مع التأبيد في النار هي خرق التوحيد بالإباء من قبول أوامر رب العالمين.

* * *

وفي سورة النساء جاء تهديدًا لمن يطعن في حكمة المواريث أو يحتج لدفعها: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وقد أشار شيخ الإسلام إلى أن العذاب المهين لا يكون إلا للكفار يقول رحمه الله:

«ومما يؤيد الفرق أنه قال هنا: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، ولم يجئ إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض واستخف بها على أنه لم يذكر أن العذاب أعد له»[2].

فالمعصية في كل هذا إنما هي الرد والامتناع؛ يقول النسفي في تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾: «و﴿الْخِيَرَةُ﴾: ما يتخير، ودل ذلك على أن الأمر للوجوب، ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾: فإن كان العصيان: عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق»[3].

أو يسميها شيخ الإسلام (المعصية المطلقة)[4]، أو هي بمعني (المعصية في التشريع) وهي مصطلحات مختلفة لنفس الأمر.

* * *

(١) مجموع الفتاوى، جـ ٧، ص ٥٩ - ٦٠.
(٢) الصارم المسلول، جـ١، ص ٥٧.
(٣) تفسير النسفي، جـ٣، ص٣٠٦.
(٤) راجع مجموع الفتاوى.

في سورة **المجادلة** بعد أحكام الظهار يلتفت السياق بعد الخطاب للمؤمنين بتفصيل حكم شرعي يلتفت إلى الكفار الذين يرفضون أصلاً أحكام الله، فيقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤].

ويُثَنّي بإشارة ثانية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥].

ثم يختم السورة بمن يوالي الكفار .. ثم يُثْني على مَن تمسك بولائه لله ويتعالى على روابط الدم وغيره حينما تعارضت مع دينه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهكذا سائر السور المدنية التي تتكلم عن تفاصيل الأحكام ومنهج الله تعالى، يكون هذا الارتباط بأصل الأمر وهو توحيد رب العالمين.

***

وكذلك الأخلاق ففي الحديث عن الأخلاق والنص على جمل رائعة منها:

١- تُصدَّر بالتوحيد.

٢- أو تُصدَّر وتختم به.

٣- أو يُضَمَّن من بينها من جانب أن التوحيد قيمة خُلُقية وأن الشرك أعظم القبائح.

٤- أو يذكر مساوئ الأخلاق مع الشرك، فيربط الخلل في التوحيد بالخلل الخلقي.

ففي تصديرها بالتوحيد:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وفي التصدير والختام به: جاءت وصايا سورة الإسراء فافتتحت بالتوحيد والنهي عن الشرك ثم ضمنت كقيمة خُلُقية: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، فهذه عقوبته في الدنيا.

ثم قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وفي نهاية هذه الوصايا ختمت بهذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، فهذه عقوبته في الآخرة.

وفي تضمنها للتوحيد كقيمة خُلُقية:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وفي ربط الخلل في التوحيد بالشرك بالخلل الخُلُقي:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣-٣٤].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣].

* * *

ولمزيد توضيح لهذا الأمر واستقراء له لبيان وجه الارتباط بين التوحيد والأحكام التفصيلية وأن السياق القرآني لم يترك التوحيد ليتكلم في شأن غيره بل استصحبه لينادى المكلَفين باسمه ويعلق القبول باستيفائه ويحضض على امتثال الأمر به ويتوعد من يترك الأمر الشرعى لخلل في جانب التوحيد فيهدد الكفار الذين لم يقبلوا الأمر أو كذبوا به كما يخوف العصاة ألا يتمادوا في عصيانهم لئلا يصل الخلل الى أصل الايمان ..

فلهذا نستعرض فيما يلى سورة البقرة على وجه الاجمال ثم نستعرض سورة النساء بطريقة أخرى وأكثر اجمالاً لبيان هذه الحقائق وغيرها..

* * *

أولاً: استعراض سورة البقرة؛ أول وأطول سورة مدنية

لنرى كيف ناقشت التوجيهات وتفاصيل الشرائع مع التوحيد وبيان وجه الربط بينهما

فإذا ألقيت نظرة على سورة البقرة ـ كمثال للسور المدنية التي تحتوي على الكثير من الأحكام التفصيلية وهي أطول سور القرآن عمومًا.

فتبدأ السورة ببيان أن هذا كتاب الله تعالى لا شك في ذلك وأنه خطاب علوي جليل ثم تقسم الناس إلى:

١ - مؤمنين: فوصَفَهم بتحقيق التوحيد وأبرز جملة من الشرائع (إقام الصلاة وإيتاء الزكاة) التي يوصفون بها (متعلقات التوحيد كما يسميها ابن حجر، أو حقوقه كما يسميها ابن القيم).

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١-٥].

٢ - وإلى كافرين: رفضوا التوحيد تصديقًا وقبولاً أو أحدهما وأظهروا ذلك.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [البقرة: ٦-٧].

٣- وإلى منافقين: أظهروا التصديق والقبول وأبطنوا خلافهما أو خلاف أحدهما فأخفوا التكذيب أو الشك، أو أخفوا رفض الخضوع، والإباء من القبول بكراهة ما أنزل سبحانه، أو رفضوا ولاء الله ورسوله والمؤمنين ووالوا الكفار سرًا خوفًا من الدوائر من الهزائم أو القحط والفقر.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

ويضرب لهم مَثَلهم في ترك الهدى بعد استبانته: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۝١٧ صُمُۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧-١٨].

ثم مَثَل المتردد منهم لا يمضي في الحق: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [البقرة: ١٩-٢٠].

ثم تثبت صدق الرسالة وتتحدى الكافرين لإلزامهم بصدق الرسالة وإلزامهم بقبولها:

﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

ثم مصير الكافرين والمؤمنين: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤-٢٥].

ثم إشارة لمن يضلهم الله عن توحيده ودينه ولماذا يضلهم: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

ثم قضية الخلق والاستخلاف والعهد المأخوذ على البشر ليعبدوا الله تعالى وحده ويقيموا منهجه تعالى وحده لا يشركوا به في عبادة ولا تشريع ولا يستكبرون عن إفراده بالعبادة أو عن قبول أمره وشرعه وكيف انحرفوا عن هذا العهد: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].

ثم العهد المأخوذ على بني إسرائيل وكيف انحرفوا عنه ـ لتعريتهم لوجودهم بالمدينة واحتياج المسلمين لهذه التعرية لليهود والنصارى في سور أخرى كما عرى القرآن الوثنين تمامًا بل وأهل الإلحاد بإشارات قاطعة: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠].

ويذكِّر بانحرافهم بالشرك عن عهدهم له بالتوحيد: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ يعني: إلهاً ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥١].

ثم يواصل تعريتهم .. وأنهم وصلوا للكفر بآيات الله تعالى برفضها وإسقاط التحاكم إليها بتحكيم غيرها وبتحريفها وقتلهم للأنبياء، وأن الذي جرأهم على هذا هو تعودهم على عصيان الأوامر والتعدي للحدود فاستمراء الذنوب قد يجرئ على المكفرات: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١]. ومن هنا قال السلف: المعاصي بريد الكفر.

ويذكر عن جميع أهل الملل أن من استقام على التوحيد في وقته وعمل صالحًا بالشرائع التي نزلت له في وقته فقبلها وعمل بها أنهم (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون): ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢].

ثم ذكر تعدي أحكامه والحيل عليها، ثم الجدال في أحكامه، ثم قسوة قلوبهم، ثم كتمان العلم وتحريف كلام الله عن مواضعه مع قلة الخشية مع التحذير من خطيئة الشرك التي تحيط بالعبد وهي غير أي خطيئة أخرى، فالمؤمن مهما عصى لا تحيط به معصيته: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١]، فهنا رد الأمر والاستكبار عنه.

يقول النسفي: «﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾: شركًا، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما رضي الله عنهم، ﴿ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾: وسدت عليه مسالك النجاة بأن مات على شركه فأما إذا مات مؤمنًا فأعظم الطاعات وهو الإيمان معه فلا يكون الذنب محيطًا به فلا يتناوله النص»[1].

(١) تفسير النسفي، جـ١، ص٥٤.

ثم ذكَّر بميثاقه عليهم بالتوحيد مع التذكير بجملة من متعلقات التوحيد وحقوقه:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣]، وجاء النهي في صيغة الخبر زيادة في التأكيد فكان حق الكلام "لا تعبدوا إلا الله" ـ وهي قراءة لبعض الصحابة .. لكن جاءت في صيغة الخبر ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ يعني: فليكن حالكم هكذا "لا تعبدون إلا الله" وهذا أبلغ وآكد.

يقول النسفي: «﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾: الميثاق العهد المؤكد غاية التأكيد، ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾: إخبار في معنى النهي كما تقول تذهب إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء وهو يخبر عنه»(١).

ثم ذكر مَن قَبِل بعض الشرائع ورفض بعضها باستحلال ما حرم الله عليه وأن هذا كفر:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٤].

فقبلوا تحريم الفداء فكان هذا إيمانًا، ورفضوا تحريم القتل والإخراج من أجل تحالفات لمصالح دنيوية فكان هذا كفرًا، ولما كان القبول والرفض لا يتجزأ ولا يتبعض كان حكمهم الكفر، فالمؤمن يقبل حكم الله كله حتى قبل أن يعرف تفصيله، ولا يحيط أحد بكل الشريعة ومع هذا فكل مسلم لا يكون مسلمًا إلا إذا قبل وخضع لشريعة الله تعالى كلها لا يرفض منها أمرًا واحدًا، وإلا لم يكن مسلمًا، وأما الطاعة والمعصية فأمر آخر فكل بني آدم خطآء، وذكر الله من المؤمنين مَن: ﴿ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾، ولم يخرجهم من الإيمان، وأثبت الأخوة للقاتل وللمتقاتلين، والذنوب يكفرها أكثر من عشرة أسباب.

ثم نص على أن الإيمان بما أنزل الله لا يتم بالمعرفة بل لابد من الخضوع له وأن المعرفة حجة عليه وأنها لا تسمى إيمانًا ـ شرعيًا ـ ولو أقر بمعرفته، طالما أنه لم يخضع لما أنزل الله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، ثم قال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثم ذكر تعالى تمنعهم من الاستجابة للرسالة الخاتمة الناسخة لما في أيديهم والمصدقة بها لا تخالفها وهي تدعو لنفس الأصل الذي دُعوا إليه من أمر التوحيد فتعللوا أنهم يؤمنون بما أُنزل عليهم هم لا على جنس آخر من العرب، فلا يهمهم أمر الرسالة بل ذواتهم ، وعصبيتهم عندهم أعظم .. فأكذبهم الله تعالى حتى فيما يدَّعون من الإيمان بما أُنزل إليهم فقال أن ما معكم لم تؤمنوا به وساق إليهم ثلاث أدلة:

١ - إباؤهم من قبول أوامر الله تعالى وفرائضه بقولهم: ﴿ سَمِعْنَا ﴾ يعني: قولك، ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ يعني: أمرك.

٢ - تأكيد هذا الرفض للشريعة بقتلهم الأنبياء الذين أتوا يذكِّرونهم برسالة التوراة نفسها ولم يأتوا بما ينسخها.

---

(١) تفسير النسفي، جـ١، ص٥٤.

فهذان للخلل في جانب التشريع بالشرك الأعظم فيه برفض أوامر الله تعالى لا مجرد المخالفة.

١ - انحرافهم في جانب النسك بعبادتهم للعجل.

فذكَّر بأخذه الميثاق عليهم والأمر بالسمع والطاعة وهما معنى التوحيد بشقيه:

فالسمع هو العلم والتصديق، والعصيان هو الرد والامتناع. هذا في جانب الشرع.

وأما في جانب التعبد والنسك فأشربوا في قلوبهم العجل يعني: حب عبادته من دون الله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾، فأجاب سبحانه عليهم: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾، وبعد هذه التعرية والفضح لحالهم علق سبحانه عن إيمانهم المزعوم بقوله: ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٠-٩٣].

ثم فضح حبهم للدنيا ومعرفتهم بسوء مصيرهم إن بقوا على انحرافهم.

ثم ذكّر بخرقهم لإيمانهم وتوحيدهم بتفريقهم بين الله ورسله من الملائكة، والمؤمن الموحد يصدق بخبر الله كله ويواليه ويوالي أولياءه: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧].

ثم يذكر نبذهم العهود كخُلُق ودأب هابط منعهم من إيفائهم بعهدهم الأعظم مع رب العالمين.

ثم نص على نبذهم الكتاب ـ كتابهم الذي بين أيديهم ـ ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١]، وهذا هو الخروج من التوحيد الذي معناه:

١ - الإقرار بربوبية الله والتصديق بكتابه ورسوله واليوم الآخر والقدر وكل ما أخبر به على وجه الإجمال .. يعني: بخبر الله كله ما عرف تفصيله وما لم يعرف.

٢ - إفراده بالعبادة وبالطاعة التي تعني: قبول جميع شرائعه وعدم رفض شيء منها والانقياد لإرادته الشرعية بقبول الناسخ الأخير من أوامر الله تعالى.

ثم ذكر أيضًا وجهًا من أوجه كفرهم وهو تعاملهم بالسحر المحرم الذي يستوجب عبادة الشياطين والاستهزاء والاستخفاف بآيات الله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثم ذكر صفاتهم النفسية القذرة من الحسد، والكذب على الله بأنهم وحدهم أصحاب الجنة بدون استيفاء شروط دخولها، ثم النص على أن شرط دخول الجنة هو التوحيد مع إحسان العمل بإخلاصه وصوابه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

وإسلام الوجه لله: توحيده بالإخلاص له (أصل الدين)، والإحسان: هو العمل الصالح المشروع والخالص من الرياء.

ثم تذكر الآيات اختلاف فرق الضلال ونفي بعضها لما عليه الأخرى من الحق .. وهو خرق للتوحيد ولأصل الدين الذي يعني: تصديق كل كتاب نزل: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورى: ١٥]، وقبول الناسخ الأخير سواء كان الناسخ في شريعة واحدة ورسول واحد (كأمر القبلة في شريعتنا) أم في شريعتين مختلفتين ومع رسول بعد رسول كشأن المسيح بعد موسى ثم محمد ﷺ بعدهما.

ثم ذكر انحرافهم عن التوحيد بادعاء الولد (اليهود في العزير، والنصارى في المسيح)، وهذا الاعتقاد خلل في التصديق والربوبية، ثم ما يترتب عليه من صرف التعبدات للمسيح أو العزير وهو خلل في الألوهية، وكلاهما كفر وشرك أعظم: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

ثم ذكر قصة إبراهيم وتوحيده وإسلامه وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ﴾ [البقرة: ١٣١]، ومعناها يدور على معنيين لأهل التفسير:

١- استسلم لله، وهذا لا يتحقق إلا بقبول الأحكام كلها في أي مجال فرديًا كان أو جماعيًا خاصًا أو عامًا في شأن مدني أو اجتماعي أو سياسي أو خلُقي أو غيره .. يقبل في كل هذا من الله تعالى وحده.

٢- أخلص دينك لله، يعني: أقصر قبولك للأحكام على الله وحده، وأقصر توجهك بعباداتك لله تعالى وحده.

ويقول شيخ الإسلام: أن التحقيق يقتضي بوجود الأمرين معًا وذلك بالاستسلام لله وحده، يعني: قبول الأحكام من الله تعالى وقصر الاستسلام عليه وحده برفض الخضوع لشرائع وقوانين من سواه وهذا هو معنى الإخلاص.

ثم وصية إبراهيم لأبنائه (الأنبياء) بالتوحيد.

ثم قلق يعقوب عند موته واستيثاقه من بقاء ولده على التوحيد: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾.
فهو أغلى إرث وأعلى قيمة.

ولعلم ولده بعظم الأمر وضخامته لم يستغربوا السؤال ولم يستهجنوه بما أنهم موحدون كما يفعل جهال زماننا بل قالوا:(نعبد إلهك): ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وعند المساومة على الملة أمرنا بالاعتصام بملة إبراهيم السالف ذكرها وهي التوحيد الذي هو الإسلام: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

ثم يذكّر تعالى بشقي التوحيد مرة ثانية: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وهـذا هو الشق العلمي الخبري أو الربوبيـة، ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾، وهذا هو الشق العملي الإرادي القصدي الطلبي أو الألوهية.

ثم يفرد تعالى الإيمان في الآية التالية وهو قطعًا التوحيد، فهنا انفرد بالذكر فشمل الشقين المذكورين في الآية السابقة: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فالإيمان هنا هو: الإيمان المجمل، يعني: التوحيد بشقيه: الإيمان العلمي، والإيمان العملي الذي هو الإسلام(١).

ثم يذكر أن التوحيد صبغة وتوجه منفرد في الحياة وهو صبغة منتسبة لله تعالى على وجه التشريف: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ثم يذكر المحاجة في التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩].

ثم تحويل القبلة وتميز الأمة، وبيان أنه اختبار للموحدين المؤمنين الذين يقبلون حكم الله الأخير الناسخ ولا يمترون في ذلك.

ثم سنة الله في الابتلاء أثناء المجاهدة بدين الله تعالى لتمكينه.

والوعد بالصلوات والرحمة للصابرين.

ثم شعائر الحج والعمرة كأحد حقوق التوحيد، وهو شعار الحنفاء.

ثم التشديد في إظهار العلم الشرعي والتهديد لمن كتم الكتاب والبينات، وأنه قد يكون سببًا للخروج عن الإيمان والتوحيد بإضلال الخلق وعدم بيان حقيقة دين الله تعالى.

ثم التذكير بالتوحيد مرة ثانيـة بإفراد الله تعالى بالألوهية: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

ثم يذكر أدلة إفراد الله بالعبادة وموجباته من تفصيل ربوبية الله تعالى وما توجبه من إفراد الله بالعبادة، ومن أعظم أفرادها ومعانيها الحب والطاعة وإفراد الله بهما: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ثم يذكر ما يُعجَب منه من التسوية في أحد مفردات العبـادة ـ وهو الحب ـ بين الله تعالى وبين خلقه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ثم التحذير من التعدي في التشريع وهذا من التوحيد .. من حقوق الله تعالى الخالصة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨]، يعني: في تحريم ما أحل الله والتشريع من دونه ودعاهم إلى التزام شرع الله في كتابه فأبوا تمسكًا بعرف الآباء.

---

(١) راجع كتاب حد الإسلام وحقيقة الإيمان،وكتاب البلاغ المبين للشيخ عبد المجيد الشاذلي.

ثم أخبر تعالى أن الكتاب هو منهج رب العالمين، وأن نسبة سماع الكفار له كنسبة سماع الغنم لمن يصيح بها لا تسمع إلا ألفاظ وأصوات وحروف لا تفهم منها شيئًا.

ثم خاطبنا باسم الإيمان للالتزام بالتحليل والتحريم الشرعيين والأمر بالشكر وتعليق كل هذا بإفراد الله بالعبادة، يعني: إن كنتم تفردونه بالعبادة والطاعة وقبول الأمر:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثم التحذير من كتمان العلم مرة ثانية.

ثم يذكر حقيقة البر والصدق والتقوى فيذكر التوحيد وجملة من الشرائع والصفات المحبوبة لله، يعني: يذكر التوحيد وجملة من حقوقه ومكملاته.

ثم ينادى باسم الإيمان المجمل ليأمرنا بحكم الله بالقصاص والإشارة إلى أخوة الدين وأنها لا تنفصم بالمعصية.. ثم حكم الوصية.

ثم نداء آخر باسم الإيمان المجمل ليأمرنا بحكمه تعالى بالصيام وتحريم أكل المال الحرام.

ثم القتال في سبيل الله والتأكيد أن قتال المسلمين لإعلاء كلمة الله وليكون الدين لله ونفي الفتنة، والفتنة: الشرك.

والتحذير من الانصراف إلى الدنيا وترك النفقة في الجهاد الذي يهدف لئلا يكون هناك فتنة وهي الشرك برب العالمين: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ثم تفصيل لبعض أحكام الحج شعار الحنيفية وشعار الموحدين ولذا قال طائفة من السلف: «﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج: ٣١]، قالوا: حجاجًا».

ثم يذكر المنافق الشرير الذي يظهر تصديقه وقبوله (ركني التوحيد) ويبطن خلاف هذا.

ثم يذكر من باع نفسه لله حتى لم يعد لنفسه حظ من نفسه فحقق كمالات التوحيد بمخالفة الهوى والنفس والشهوات ولم يعمل إلا بأمر ربه وعلى مقتضى إرادته الشرعية الدينية وهذا كطرفي نقيض بينه وبين هذا المنافق السالف ذكره.

ثم الأمر بالدخول في جميع شرائع الإسلام وعدم رفض شيء منها بالبقاء على حكم منسوخ، وأن هذا يستلزم رد الشرائع الناسخة وهذا نقض للتوحيد الذي هو إفراد الاستسلام لله بقبول حكمه الناسخ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨-٢٠٩].

وقد نزلت لما استأذن بعض اليهود الذين أسلموا ـ كعبد الله بن سلام ـ في أن يقيموا الليل بالتوراة وأن يسبتوا مع الجمعة فنزلت الآية وحُذروا من الشرك بقوله: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم ﴾، قال ابن عباس: الزلل: الشرك.

ووجه الشرك هنا هو رفض الشرائع الناسخة بالبقاء على شيء منسوخ، فما بالك بالمبدل وهو الذي لم يأت به نبي بل هو محض آراء البشر وأهواؤهم!.

وما بالك بإهدار اعتبار الشرع جملة واستبداله بجملة قوانين صادرة من غير الله! بل يُنص فيها على ردّ الأمر لغيره تعالى بل وبتحريم الرد له تعالى؟!!.

ثم يستمر السياق بتذكير بني إسرائيل بنعمه ليقبلوا الرسالة الأخيرة التي قبولها من التوحيد وإلا كان الشرك.

ثم ذكر سنته تعالى في اختلاف الأمم، وأن الناس كانوا أمـة واحدة على التوحيد .. عشرة قرون بين آدم ونوح كما قـال ابن عباس، ثم حدث الشرك فجـاءت الرسل للهدى من هذا الانحراف.

ثم سنته في الابتلاء أثناء الصراع مع أهل الشرك وأنه الممهد والممحص لاستئهال الجنة.

ثم يذكر النفقة كأحد متعلقات التوحيد ـ على تسمية ابن حجر ـ أو حقوق التوحيد ومكملاته ـ على تسمية ابن القيم ـ أو أحد أفراد الإيمان الواجب الذي يخاطب به من حقق الإيمان المجمل.

ثم القتال لإعلاء كلمة الله ودينه وحكمه وأن علم الله لنا وشرعه لنا خير من اختيارنا وميولنا.

ثم حكم من اعتدى في الشهر الحرام من المجاهدين.

ثم بعض الأحكام التفصيلية من متعلقات التوحيد وحقوقه: من الخمر والميسر وترجيح تركهما ـ كحكم مرحلي ـ ثم حكم خلط أموال اليتامى، وتحريم نكاح المشركات، وبعض أحكام المحيض والاقتراب من الزوجات وتعليق الأعمال بطلب لقاء الله تعالى، وحكم الأيمان وأن لا تجعل حاجزًا عن الطاعة ثم أحكام الطلاق.

وبعد هذه الجملة من الأحكام التي توالت يعلق السياق الخطاب بها بمن آمن وقَبِل حكم الله تعالى فتأتي هذه الإشارات للتوحيد والإيمان: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، ونكرر أن الإيمان بالله تعالى هو التصديق به والخضوع له تعالى وحده.

ثم جملة أخرى من متعلقات التوحيد وحقوقه من الإيمان الواجب فذكر تعالى أحكام الرضاع والعدة للمتوفى عنها زوجها ثم أحكام مواعدتهن للنكاح وحكم هذه المواعدة في أثناء العدة مع الأمر بمراقبة الله تعالى، ثم أحكام الطلاق قبل المسيس، وأحكام الصلاة .. ثم التحضيض للقتال في سبيل إعلاء كلمة الله.

وكلمـة الله هي: جملة ما أنزل من الكتاب والسنة وإعلاؤها معناه أن تُحكَّم وتُمكَّن ويخضع لها الناس.

ثم التذكير بمثَل مجمل ممن قبلنا ثم مثَل مفصل مع طالوت وجالوت وبروز نبي الله داود والنص على أن القتال هو ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: من أجل التوحيد ونشره والتحضيض على الجهاد من أجل هذا.

ثم إشارة إلى رسل الله الذين جاءوا بالتوحيد ورسالات مختلفة في فروعها متفقة في أصلها من التعبد والطاعة لله تعالى وحده.

ثم أعظم آية في الكتاب وهي آية الكرسي التي تنص على صفات رب العالمين وتفرده بالألوهية والربوبية، وهي تعليم مباشر لحق الله الخالص ولموجباته بالنص على جوامع صفاته الحسنى (الحي القيوم) والتي قال بعض أهل العلم أن جميع الصفات تدور عليهما.

ثم التذكير بولاء الله للمؤمنين فالمؤمن يتولى الله تعالى وحده وهذا ركن من أركان التوحيد، ويواليه ربه فكل مؤمن وكل موحد عنده أصل الولاية لله ثم تتفاوت ولايته بمقدار طاعته، فكل مؤمن يوالي ربه بالتوحيد فيواليه ربه ثم بمقدار ما يقوم به من الطاعة تزداد ولاية الله تعالى له بالمحبة والنصرة والحفظ.

وذكر تعالى ولاء الكفار للطواغيت بالشرك وتعلق القلوب بهم من دون الله وولاء الطواغيت لهم ليخرجوهم من النور إلى الظلمات في الدنيا ثم إيرادهم النار يوم القيامة.

ثم يذكر تعالى المحاجة في إفراده بالعبادة والطاعة والخضوع لأمره بين إبراهيم والنمرود.

ثم ذكر صفة القدرة والإحياء مما هو من ربوبية الله والتي توجب إلهيته وحده.

ثم جملة أخرى من متعلقات التوحيد وحقوقه من النفقة في سبيل الله والتحضيض عليها.

ثم تحريم الربا والمناقشة في مَن رفض تحريمه، فهنا نص على حكم شرعي وربطه بأصله من التوحيد لله بقبول الشرائع منه وحده وتحقيق الاستسلام له بقبول أحكامه، لأنه ذكر هنا استحلال الربا وليس مجرد أكله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وهذا مبالغة في تحليلهم الربا كما قال المفسرون ـ بأنهم قاسوا حل البيع على حل الربا ـ يعني: أن حل الربا هو الأصل .. وكان حق الكلام أن يقاس الربا على البيع بأنه أحد البيوع الحلال .. لكن لشدة تمسكهم بإباحته ورفضهم لتشريع تحريمه مع الطعن في حكمة الآمر سبحانه وتعالى .. ساقوها على هذا الوجه فقالوا أن البيع مباح كالربا!.

ثم أشار سبحانه مرة أخرى لمن يستحل المحرم: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ يعني: إلى استحلال الربا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وصيغة أصحاب النار لا تذكر إلا للكفار لأن المؤمن الموحد الذي معه الإيمان المجمل ـ التوحيد ـ وجملة من الإيمان الواجب لو لم يستوف الإيمان الواجب ولم يغفر له بالأسباب العشرة التي ذكرها شيخ الإسلام فدخل النار لخلل في الإيمان الواجب لا يقال عليه أنه من أصحاب النار لأنه ليس صاحبها وإن دخلها .. فلابد له من الخروج إلى الجنة لأن معه الموجبة التي توجب له دخول الجنة: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»(١).

ثم بقية أحكام الربا وكيفية التوبة والانخلاع منه بالنسبة لأصحاب رؤوس الأموال.

ثم آية الدَّين وآية الرهان وربطهما بمراقبة الله، وهذا كله من حقوق ومتعلقات التوحيد.

ثم التحذير من أن يجر استثقال التكليف إلى رفضه فيقع الشرك: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فلما نزلت قال الصحابة: هذه لا نطيقها فقال ﷺ محذرًا: «أتقولون سمعنا وعصينا..»، وهم لم يقولوا فعلاً سمعنا وعصينا لكن رسول ﷺ خاف عليهم. فهو تحذير من أن يجرهم استثقالهم للتكليف إلى رفضه.

---

(١) رواه مسلم.

ثم التضرع والدعاء والختام بالدعاء بالنصر بتقديم حيثياته بأنهم تولوا ربهم وحده ـ وهذا من التوحيد ـ وتبرؤا من الكفار ـ ولا يوالي المسلم الكفار وإلا لم يكن مسلمًا.

ومن أجل ولائهم لربهم وحبهم له وبغضهم لعدوه فهم يجاهدون أعداءه لإزالة ما يسخطه من الكفر ولإقرار محبوباته تعالى وإقرار دينه فيدعون عندئذ بالنصر على عدوهم ويذكرون عدوهم بصفة (الكافرين) فلم يذكروا جنسًا معينًا أو عرقًا يطلبون النصر عليه، يعني: أنهم ما عادوهم لحظ نفوسهم بل لكفرهم بالله وما جاهدوهم إلا لأجل هذا الوصف إما لإزالته، أو لقمعه ومنعه من صد الناس عن الهدى.

* * *

فهكذا رأينا القرآن يخاطبنا في جميع مناحي الحياة من تشريعات ومن خُلُق ومن صفات ولم يترك التوحيد ليخاطبنا في هذا بل خاطبنا في كل هذه الأمور مع التوحيد؛ فيذكِّر به وبمفرداته أو بعضها ، ويذكِّر بالميثاق عليه وبالوصية به، ثم يربط به الأحكام فينادى باسمه، ويجعله شرطاً للخطاب ومحضضاً على قبوله وعلى القيام بالأمر الشرعي.

* * *

ثانيًا : استعراض سورة النساء لتناولها الكثير من الأحكام التفصيلية كذلك

إنِ استعرضنا سورة النساء استعراضًا أسرع مما مضى في سورة البقرة نشير فقط إلى محاورها، خاصة تناولها للتوحيد في ثنايا خطابها المتنوع في الأحكام الكثيرة في مختلف المجالات: من أحكام الأسرة إلى أحكام اجتماعية وجهاد وسياسة واقتصاد وأخلاق والاهتمام بإظهار هذا التنوع..

ونشير هنا عموما إلى ثلاثة أمور:

١- تنوع الخطاب في شتى مجالات الحياة.

٢- النص والتذكير بالتوحيد وتشنيع وتجريم الخلل فيه.

٣- ربط الأحكام به.

* * *

• **أولاً: تنوع الخطاب في شتى مجالات الحياة..وهذه أمثلة:**

خطاب أسرة واجتماع وقضايا المواريث..كالآيات:

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٢]، ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [النساء: ٣]، ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ ﴾ [النساء: ٤]، ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [النساء: ٣٤]، ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٧]، ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ ﴾ [النساء: ١٢٨-١٣٠]، ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٧٦].

وخطاب اقتصادي ببعده الاجتماعي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

وخطاب خُلُقي: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١].

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٢]، لمنع التحاسد.

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

ثم نص على ذم صنفين متضادين:

أ- ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ٣٧].

ب- ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: ٣٨].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٠٧-١٠٩]، ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٨٥-٨٦].

وخطاب للحفاظ على الهوية بتعرية العدو: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦١]، ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۗ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء: ٨٨-٨٩].

وخطاب سياسي وعقدي وبيان لحالة الخلاف بين الأمة والسلطة وكيفية علاجها وخطاب في نفس الوقت للسلطة برد الأمور إلى الله والرسول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وخطاب جهادي في القتال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١].

والتحضيض عليه: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٧٤-٧٦].

وخطاب عقدي: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

وخطاب سياسي واجتماعي لحفظ الأمة: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

وخطاب للحفاظ على الهوية والتماسك: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء: ٨٨-٨٩]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ١٥٣-١٥٤].

وخطاب في العبادات مع الجهاد: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠١-١٠٢].

* * *

فهذا التنويع نبهنا عليه لمن يحصر الخطاب التشريعي فيما يسميه الخطاب الديني أو القاعدة الدينية أو الفردية.

فهذه أحكام الله؛ أولاً: متنوعة في جميع مجالات الحياة.

وثانياً: منها ما يخص الفرد وحده ومنها ما يخص الجماعة ولا تقوم به الجماعة إلا من خلال سلطة شرعية تقيم أمر الله.

* * *

• **ثانيًا: وأما الأمر بالتوحيد وبمفرداته والنص عليه وتجريم الخلل فيه فجاءت آيات كثيرة:**

١- لما وقعت المخالفة في أحد أركان التوحيد العملي بإرادة التحاكم إلى غير الله ورسوله نزلت الآيات فاضحة ومجرِّمة لهذا العمل، ومبينة لارتباط هذا الركن بأصل الدين وبأصل الإيمان:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦٥].

فهذا نص على ركن من أركان توحيد العبادة وهو إفراد الله بصرف الحكم له والنص على مَن أراد - مجرد إرادة - أن يتحاكم لغيره فهو منافق، وإيمانه زَعْم، ولا يؤمن - أي: الإيمان المجمل أو أصل الإيمان - حتى يُحكِّم الرسول.

يقول ابن القيم: أن التحكيم في مقام الإسلام، ونفي الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، فالإيمان هنا ليس الإيمان الواجب وإلا لما استقام سياق الآيات، بل هو الإيمان المرادف للإسلام أي: أصل الإيمان، وأصل الدين وهو التوحيد، قال رحمه الله: «إذا عرف هذا فالرضى بالقضاء الديني الشرعي واجب وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾، فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه وحتى يسلموا لحكمه تسليمًا وهذا حقيقة الرضى بحكمه، فالتحكيم: في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان، والتسليم: في مقام الإحسان»[1].

٢- ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٨٩]: نزلت فيمن تذبذب ولاؤه بين ولاية الله - التي هي أصل - وولاية الرسول والمؤمنين تبعًا لولاية الله، وبين ولاية قومه بل ورجح ولاء قومه.

ففي أسباب النزول النص على أنهم قالوا: إن لقينا أصحاب محمد فلا علينا منهم وإن لقينا قومنا فهو أحب إلينا.

والولاء لله وإفراد الله به حق خالص لله: ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام: ٥١]، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام: ١٤]، بمعني حبه تعالى ونصرة دينه والتجمع على هذا الأساس ركن من أركان توحيد العبادة لا يكون المسلم مسلمًا إلا بولائه لله تعالى وحده بالحب والعبادة والنصرة.

وهنا يجرِّم سبحانه من تذبذب ولاؤه ناهيك عمن يعطي ولاءه لعدو ربه.

٣- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾، في موضعين [النساء: ٤٨، ١١٦]. وبيان انحراف الوثنيين عن التوحيد وسذاجتهم وسفاهتهم: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧]، فقد كانوا يدعون آلهتهم إناثًا فيقولون أنثى بن فلان يقصدون صنمهم الذي يعبدون.

٤- وعندما وقعت صور ولاء للكفار، خرقًا للتوحيد ولأصل الدين على وجه النفاق[2] نزلت الآيات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٣٦- ١٣٨].

---

(١) مدارج السالكين، جـ٢، ص١٩٢.

(٢) وليس تغيرًا في الاعتقاد أو حبًا لدينهم واستحسانًا له.

ونفاقهم في هذه الآيات بولائهم لأعداء الله:

- إما بتكثير سوادهم ترويجًا لباطلهم كما كانوا يكثرون مجالس كعب بن الأشرف التي يطعن فيها في رسول الله ويسبه ويشبب بنساء رسول الله ونساء الصحابة وفيها نزلت الآيات الأولى.

- أو لمن يعطي ولاءه للمؤمنين والكافرين حائرًا بينهما وممسكًا للخيطين .. خائفا من الدوائر.. فاقدًا للاعتصام بالله تعالى.

- أو لمن لا ولاء له إطلاقًا فهو مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، أما المسلم فولاؤه ثابت لله ورسوله والمؤمنين.

٥- وفيمن لم يستوف التصديق بخبر الله بإيمانه ببعض الرسل وكفره ببعض نزل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وهو التفريق بالإيمان ببعض الرسل والكفر ببعضهم ولابد في التوحيد من التصديق بكل ما أخبر الله به فأما من بلغه أن هذا من رسل الله ويكفر به فقد نقض تصديقه وبالتالي نقض إيمانه وتوحيده.

٦- ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٧١]:

وهو النهي عن الغلو في المسيح وعن عبادته (هذا في جانب الألوهية).

وعن اعتقاد ألوهيته أو بنوته (وهذا في جانب الربوبية).

وكلاهما شرك أعظم.

مع النهي عن الكبر ونفيه عن ملائكته ورسله: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢].

* * *

• **ثالثًا: ومن جانب ربط تفصيل الشرائع به فهذه أمثلة:**

المثال الأول: عند أحكام المواريث أعقبها بتهديد لا يأتي به الخطاب القرآني إلا للكفار:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

وقد أشار شيخ الإسلام في "الاقتضاء، والصارم" إلى أن صيغة العذاب المهين لا تأتي إلا للكفار فقط بخلاف العذاب الأليم أو العظيم فقد يخاطب ويهدد بها أو يوعد بها الكافر وقد يهدد بها الفاسق الملي[1].

فهذه الإشارة جاءت لمن يرفض أحكام المواريث أو يطعن فيها فقد ورد أن البعض قال عندما نزلت آيات تقرير حق المرأة والصغير في المواريث: أنورث من لا يغزو ولا يركب الخيل ولا يحوز الغنيمة فنزلت هذه الآية الكريمة.

---

(١) يعني الفاسق الذي لم يخرج بفسقه عن ملة الإسلام.

ويقول النسفي: «﴿ وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾: لهوانه عند الله، ولا تعلق للمعتزلة بالآية فإنها في حق الكفار؛ إذ الكافر هو الذي تعدى الحدود كلها، وأما المؤمن العاصي فهو مطيع بالإيمان غير متعد حد التوحيد، ولهذا فسر الضحاك المعصية هنا بالشرك، وقال الكلبي: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بكفره بقسمة المواريث ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ استحلالا»[1].

* * *

(التفريق بين المعصية والاستحلال، ودخول رد أمر الله تعالى في معنى الاستحلال ولو كان صاحبه مصدقا لخبر الله)[2].

وهنا نقطة مهمة جدًا للتفريق بين المعصية والاستحلال الذي أشار إليه النسفي نوضحه من كلام شيخ الإسلام، وكذلك فإن البعض لا يفهم من الاستحلال غير الشك في حرمة المحرم المقطوع بحرمته أو التكذيب بهذا التحريم، وهذا خطأ وقصور، فإن هذه بعض أنواعه لكنه يشمل أيضًا الرفض المحض ولو كان مصدقًا وجازمًا بالتحريم، سواء اقترن به طعن في حكمة الآمر سبحانه وتعالى كمن يتهم الشريعة بالتخلف أو الوحشية أو القصور، أم تمحض للرفض فقط .. مع بيانه ـ رحمه الله ـ لحقيقة أصل الإيمان والتوحيد الذي به يكون المسلم مسلمًا.

يقول رحمه الله أثناء كلامه عن ساب الرسول وكونه كافرًا بمجرد سبه لرسول الله بدون قيد آخر، ويرد على من يقيد كفره بحالة ما إذا اعتقد حِلّ السب ولم يكفروه بالسب المجرد، رغم أن المتواتر عن الله ورسوله وصحابته أن من سب الله أو كتابه أو دينه أو رسوله فقد ارتد بهذا السب لا يشك في هذا مسلم، والتقييد بالاستحلال صحيح مع الذنوب والكبائر، أما التقييد بالاستحلال لما هو بذاته مكفر خلل عظيم في الفهم لدين الله رغم انتشاره حتى في أوساط كثير ممن يتصدرون للدعوة في واقعنا المعاصر الأليم، وذلك أن من يتأثر بشبه المرجئة والجهمية يطرّد هذا الأصل فيأتي للاستهزاء أو الاستخفاف بالشرع أو بالدين عمومًا وبغيبياته، أو لرد أمر الله تعالى باستبدال شرعه بشرع وقوانين أخرى يلتزم بها بديلاً عن ما أنزل الله تعالى .. لأنها أحكام في نفس المناطات التي أنزل الله تعالى فيها أحكامًا شرعية، فيكون قبول أحدهما مستلزمًا لرد الآخر، فالحكم الشرعي في هذا أنه بمجرد هذا الاستهزاء أو الاستخفاف أو التبديل الذي يفرض أوضاعًا عامة ليلتزم بها الناس وتُفرض عليهم شريعة أخرى غير شريعة الله تعالى ..

هذه الأوضاع بذاتها رد لأمر الله تعالى وتستلزم انتفاء الإيمان من القلب وهي شرك أعظم ونقض للإيمان[3]، لأن الإيمان عبارة عن: (تصديق بخبر الله تعالى، وقبول لأمره) فإذا انتفى التصديق فليس بمؤمن ولا مسلم، وإذا انتفى القبول للأحكام، عمومًا أوخصوصًا، فرديًا أوجماعيًا، فليس بمؤمن ولا مسلم، كما قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: من قال أصدق الرسول ولا أطيعه (رد الأمر) فهو كافر وإذا

---

(١) تفسير النسفي جـ١، ص٢١٠ - ٢١١.

(٢) لأهمية ونفاسة وحسم كلام شيخ الاسلام كان هذا النقل المطول بعض الشيء لعظم الاستفادة منه ومواجهته لشبهات قائمة في هذا الزمان تلبس على الناس أمر دينهم.

(٣) لمن فرضها ولمن قبلها ورضي بها، أما من علم الله أنه كاره فقد برئ من هذا الجرم.

قال أطيعه ولا أصدقه فهو كافر حتى يطيعه ويصدقه معًا، فدخول التقييد بالاستحلال القلبي على رد أمر الله تعالى معناه أن الإيمان عند قائل هذا الكلام هو مجرد التصديق القلبي وهذه من أفسد العقائد وأخبثها وأخطرها على الأمة.

يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بيانًا لهذه الحقيقة: «وجواب الشبهة الأولى من وجوه:

أحدها: أن الإيمان وإن كان أصله تصديق القلب فذلك التصديق لابد أن يوجب حالاً في القلب وعملاً له، وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته، وذلك أمر لازم كالتألم والتنعم عند الإحساس بالمؤلم والمنعم وكالنفرة والشهوة عند الشعور بالملائم والمنافي، فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق ولم يغن شيئًا، وإنما يمتنع حصوله إذا عارضه معارض من حسد الرسول و التكبر عليه أو الإهمال له وإعراض القلب عنه ونحو ذلك كما أن إدراك الملائم والمنافي يوجب اللذة والألم إلا أن يعارضهم عارض، ومتى حصل المعارض كان وجود ذلك التصديق كعدمه كما يكون وجود ذلك كعدمه بل يكون ذلك المعارض موجبًا لعدم المعلول الذي هو حال في القلب وبتوسط عدمه يزول التصديق الذي هو العلة فينقلع الإيمان بالكلية من القلب، وهذا هو الموجب لكفر من حسد الأنبياء أو تكبر عليهم أو كره فراق الإلف والعادة مع علمه بأنهم صادقون وكفرهم أغلظ من كفر الجهال.

الثاني: أن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر؛ فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد، وإذا كان كذلك فالسب إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف به.

فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة امتنع أن يكون فيه انقياد أو استسلام، فلا يكون فيه إيمان، وهذا هو بعينه كفر إبليس فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولاً ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافرًا، وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف: تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق ثم يرون مثل إبليس وفرعون ممن لم يصدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون، ولو أنهم هدوا لما هدي إليه السلف الصالح لعملوا أن الإيمان قول وعمل أعني في الأصل قولاً في القلب وعملاً في القلب.

فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته، وكلام الله ورسالته يتضمن أخباره وأوامره، فيصدق القلب إخباره تصديقًا يوجب حالاً في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم وهذا الانقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمنًا إلا بمجموع الأمرين؛ فمتى ترك الانقياد كان مستكبرًا فصار من الكافرين وإن كان مصدقًا؛ فالكفر أعم من التكذيب: يكون تكذيبًا وجهلاً ويكون استكبارًا وظلمًا، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار

دون التكذيب، ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس، وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالاً وهو الجهل.

ألا ترى أن نفرًا من اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ وسألوه عن أشياء فأخبرهم فقالوا: نشهد أنك نبي، ولم يتبعوه وكذلك هرقل وغيره؛ فلم ينفعهم هذا العلم وهذا التصديق؟.

ألا ترى أن من صدق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله وقد تضمنت خبرًا وأمرًا فإنه يحتاج إلى مقام ثان وهو تصديقه خبر الله وانقياده لأمر الله فإذا قال: "أشهد أن لا إله إلا الله" فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره "وأشهد أن محمدًا رسول الله" تضمنت تصديقه فيما جاء به من عند الله؛ فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار.

فلما كان التصديق لابد منه في كلتا الشهادتين ـ وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول ـ ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان وغفل عن أن الأصل الآخر لابد منه وهو الانقياد وإلا فقد يصدق الرسول ظاهرًا وباطنًا ثم يمتنع من الانقياد للأمر إذ غاية تصديق الرسول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه وتعالى كإبليس وهذا مما يُبيِّن لك أن الاستهزاء بالله أو برسوله ينافي الانقياد له لأنه قد بلغ عن الله أنه أمر بطاعته فصار الانقياد له من تصديقه في خبره.

فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذب له أو ممتنع عن الانقياد لربه وكلاهما كفر صريح، ومن استخف به واستهزأ بقلبه امتنع أن يكون منقادًا لأمره؛ فإن الانقياد إجلال وإكرام والاستخفاف إهانة وإذلال وهذان ضدان فمتى حصل في القلب أحدهما انتفى الآخر، فعلم أن الاستخفاف والاستهانة به ينافي الإيمان منافاة الضد للضد.

الوجه الثالث: أن العبد إذا فعل الذنب مع اعتقاد أن الله حرمه عليه واعتقاد انقياد لله فيما حرمه وأوجبه فهذا ليس بكافر فأما إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند ولهذا قالوا: من عصى الله مستكبرًا كإبليس كفر بالاتفاق ومن عصى مشتهيًا لم يكفر عند أهل السنة والجماعة وإنما يكفره الخوارج، فإن العاصي المستكبر وإن كان مصدقًا بأن الله ربه فإن معاندته له ومحادته تنافي هذا التصديق.

وبيان هذا أن من فعل المحارم مستحلاً لها فهو كافر بالاتفاق فإنه ما آمن بالقرآن من استحل محارمه وكذلك لو استحلها من غير فعل.

والاستحلال:

١ - اعتقاد أن الله لم يحرمها[١].

٢ - وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرمها[٢].

هذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبية ولخلل في الإيمان بالرسالة ويكون جحدًا محضًا غير مبني على مقدمة.

---

(١) تكذيب لأنه يجزم بعدم التحريم.

(٢) شك في تحريم الله تعالى لهذا المحرم المقطوع بحرمته.

٣- وتارة يعلم أن الرسول إنما حرم ما حرمه الله ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند المحرم فهذا أشد كفرا ممن قبله وقد يكون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله وعذبه.

(الإمتناع نوعان):

١- ثم إن هذا الامتناع والإباء إما لخلل في اعتقاد حكمة الآمر وقدرته فيعود هذا إلى عدم التصديق بصفة من صفاته[١].

٢- وقد يكون مع العلم بجميع ما يصدق به تمردًا أو اتباعًا لغرض النفس وحقيقته كفر هذا لأنه يعترف لله ورسوله بكل ما أخبر به ويصدق بكل ما يصدق به المؤمنون لكنه يكره ذلك ويبغضه ويسخطه لعدم موافقته لمراده ومشتهاه[٢] ويقول: أنا لا أقر بذلك ولا ألتزمه وأبغض هذا الحق وأنفر عنه، فهذا نوع من غير النوع الأول، وتكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع بل عقوبته أشد وفي مثله قيل: (أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه) ـ وهو إبليس ومن سلك سبيله ـ وبهذا يظهر الفرق بين العاصي فإنه يعتقد وجوب ذلك الفعل عليه ويحب أنه يفعله لكن الشهوة والنفرة منعته من الموافقة فقد أتى من الإيمان بالتصديق والخضوع والانقياد وذلك قول وعمل ولكن لم يكمل العمل.

وأما إهانة الرجل من يعتقد وجوب كرامته كالوالدين ونحوهما فلأنه لم يهن من كان الانقياد له والإكرام شرطًا في إيمانه وإنما أهان من إكرامه شرط في بره وطاعته وتقواه، **وجانب الله والرسول إنما كفر فيه لأنه لا يكون مؤمنًا حتى يصدق تصديقا يقتضي الخضوع والانقياد، فحيث لم يقتضه لم يكن ذلك التصديق إيمانًا بل كان وجوده شرًا من عدمه** فإن من خلق له حياة وإدراك ولم يرزق إلا بالعذاب كان فقد تلك الحياة والإدراك أحب إليه من حياة ليس فيها إلا الألم.

وإذا كان التصديق ثمرته صلاح حاله وحصول النعم له واللذة في الدنيا والآخرة فلم يحصل معه إلا فساد حاله والبؤس والألم في الدنيا والآخرة كان أن لا يوجد أحب إليه من أن يوجد.

وهنا كلام طويل في تفصيل هذه الأمور، ومن حكَّم الكتاب والسنة على نفسه قولاً وفعلاً ونور الله قلبه تبين له ضلال كثير من الناس ممن يتكلم برأيه في سعادة النفوس بعد الموت وشقاوتها، جريًا على منهاج الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله، ونبذوا الكتاب وراء ظهورهم، واتباعًا لما تتلوه الشياطين»[٣].

---

(١) كمن يطعن في أحكام الشريعة ويصفها بالوحشية أو الجمود أو التخلف أو الرجعية، أو كمن يستهزىء بأحكام رب العالمين ويسخر منها سواء بطريقة فردية كالنكت والطرائف الساخرة من الدين كالغيبيات أو الآخرة أو القرآن العظيم، أو بوجه عام من خلال أعمال فنية تسخر من الدين أو من مصطلحاته كالجهاد أو غض البصر او غيره أو تسخر من رموزه من علماء الأمة.

(٢) كمن يرفض أحكام الشريعة بأن تكون هي القوانين العامة والخاصة للمسلمين، ويرفض كونها ملزمة بوجه عام مع كونه يصدق بأنها حكم الله تعالى لا يشك في ذلك أو لا يبديه لكن لا يرى كونها ملزمة، ويقول فلتبق هذه الأحكام في إطار الميول الفردية للمسلم لكن لا يُلزم بها المجتمع والأنظمة السياسية أو الاجتماعية أو الاعلامية أو الثقافية أو أسس الدولة عمومًا.

(٣) الصارم المسلول جـ١، صفحة ٥١٩.

المثال الثاني (على ربط تفصيل الشرائع بالتوحيد):

عند الوصية بجملة من الأخلاق والنهي عن رذائل الخُلُق، المتلازم منها، والمتضاد من البخل ومن الإنفاق مراءاة، بدأها بالنص على التوحيد وتحريم الشرك: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٦-٣٩].

ذلك لأن التوحيد هو قاعدة التشريع وقاعدة الخُلُق وعلى أساسها يخاطب العبد وبشروطها يصح العمل ويقبل.

المثال الثالث: يخاطبنا تعالى باسم الإيمان المجمل لتحقيق الإيمان الواجب، يعني: القيام بشُعَب هذا الدين وفرائضه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]، يقول الحافظ بن كثير: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه».

المثال الرابع: النداء في جميع الفرائض والمحرمات ـ أي: حقوق التوحيد ومتعلقاته ـ باسم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾، يعني: صدقوا وانقادوا.

هذه سورة النساء ..

* * *

وهنا كلمة:

إن خطاب الله تعالى متواتر في القرآن والسنة بأنه خطاب عام في جميع جوانب الحياة ..

فهو يخاطب الناحية العقدية ويخاطب الخلق الفردي والتعبد الفردي والمشاعر والسلوك ..

ويخاطب الناحية العامة الجماعية .. جماعة المسلمين .. الأمة ..

ويخاطب السلطة بخطاب عام تعبدي لإقامة الشعائر، ويخاطبها بخطاب عاديّ لإقامة الشرائع؛ ففي السياسة خطاب وفي الاقتصاد خطاب، وفي الناحية العسكرية القتالية لتحديد أهدافها وأحكامها مع الخصوم خطاب، وفي الناحية الاجتماعية العامة والأسرية خطاب وفي الناحية الفكرية والفنية وفي كافة أنشطة السلوك البشري خطاب شرعي كذلك، وهكذا..

يقول الإمام الشاطبي عن الشريعة وعلمِها وخواص هذا العلم: «إحداها العموم والاطراد فلذلك جرت الأحكام الشرعية في أفعال المكلفين على الإطلاق وإن كانت آحادها الخاصة لا تتناهى، فلا عمل يفرض ولا حركة ولا سكون يدعى إلا والشريعة عليه حاكمة إفرادًا وتركيبًا»[1].

والإسلام يحدد هوية الإنسان العقدية ويراعي الهوية في السلوك وفي المظهر من سمت إسلامي وملبس ومسكن .. فهو يؤثر في طريقة العمران وبناء المدن التي تتمركز بالمسجد .. والتي تراعى فيها القيم التي جاء بها هذا الدين من الجمال ومراعاة الضعفاء والنساء .. والخُلُق العام من العفاف والرحمة بالصغير وتوقير الكبير، وعفة الكلمة والمنطق مع عفة النظرة ..

وبناء البيت الذي يراعي عورة المسلم ومكان صلاته ومراعاة صحته ورفاهية ولده وزوجه مع التستر، مع الجمال والطمأنينة ومعرفة واجبات كل فرد في الأسرة، احترام المرأة زوجة وأم وبنت وأخت كجوهرة مصونة وعرض يصان ..

ويحدد الإسلام طريقة الشرب والأكل وما يحل وما يحرم من الطعام والشراب والآنية ..

والجلسة أثناء الطعام واليد التي يأكل بها والأصابع وكم يأكل وما يحرم عليه ..

وهل يتكلم على طعامه أم يسكت ..

كيف يمشي وكيف يقعد ..

والملبس وما يحل منه وما يحرم، واستحباب ألوانه ..

ويؤدب المسلم في طريقة كلامه ومتى يتكلم ومتى لا، وماذا يقول، وماذا يتخير من الكلام.

فيهتم بكلامه وبصمته ويهتم بنظره وإلام ينظر وأن يعتبر بهذا النظر ..

فيكون نطقه ذكرًا ونظره عبرة وصمته فكرًا ..

حتى نومه كيف ينام وكم ينام وما يراعى فيه من آداب ..

من يتزوج وعلى أي أساس ومَن يفضل وماذا يبتغي بزواجه ..

---

(١) الموافقات جـ ١، صفحة ٧٨.

حتى العلاقة الشخصية والخاصة جدًا مع زوجته لها مباحاتها ولها ما لا ينبغي فعله ..

بل يهتم هذا الدين بهيئته وترجيل شعره أو عدمه ومتى يكون هذا ومتى يختلف الاهتمام.

وهل ينتعل أم لا ..

إنه يحدد طريقة تفكيره .. وأولويات فكره وكيف يرتب حياته ويرتب أولوياته فيها ..

وما يريد إنجازه فيها قبل الموت، وكيف يهتم بالأمور ..

كما يساعده على تحديد حلمه وأمله وطموحه ..

ويعطيه الميزان للناس وللأفعال وللقيم وللأوضاع ..

بل فتح له آفاقًا لجهده ونظره للتاريخ وللواقع وللمستقبل ..

بل فتح آفاقًا لتصور ما هي الحياة .. وكيف تكون في حسه ..

وما حجمها وهل تنتهي هنا أم لها امتداد أطول وأعمق وأوسع ..؟.

هل الموت أحب إليه أم القتل من أجل الله؟ وهل يفر من القتل في سبيله أم يتمناه ..

إنه صبغة عامة ..

وإنه مشرب حضاري يحدد ملامح المسلم في باطنه وعقيدته ومشاعره ويحدد ظاهره من سلوك وهيئة ويحدد ملامح الأسرة وعلاقاتها والمجتمع والسلطة والعلاقات بينهما ..

والعلاقة بين المسلم وبين غير المسلم إن كان محاربًا أم معاهدًا ..

والعلاقة بين الأمة وأعدائها ..

عندما يكون الإسلام بهذا الحجم ويكون بهذه الصبغة بحيث يصبح مشربًا حضاريًا ومشروعًا حضاريًا للمسلم وللأمة لتحقيقه ..

هذا المشرب الحضاري وكل هذا الحجم من الأحكام والتوجيهات متوقف على قرار أول يتخذه الإنسان في حياته .. هذا القرار هو لا إله إلا الله .. أي: لن يخضع ويقبل ويتعبد ويحب إلا الله؟ أم لا، ويرفض هذه الكلمة ..

ثم إن قررها فلا يتركها لينتقل لغيرها .. بل ينتقل بها ويؤكد عليها .. لأنها الجذر والقاعدة لهذا البناء الضخم فلابد من تقوية الجذر جدا وترسيخ القاعدة جدًا ليستطيع أن يقوم بكل هذا ويشربه قلبه بحب .. لأنه منهج ربه الذي انفرد حبه في قلب المسلم وانفردت طاعته له وانفرد تعظيمه وولاؤه له ..

ويكون كل هذا الالتزام هو إعلان عن هوية الشخص الذي يقول لا إله إلا الله .. من أجل هذا كان لابد من الاستمرار في التذكير والأمر والوصية بالتوحيد ..

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا .. فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة .. كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير .. وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلال المتشابكة الأغصان، الضاربة في الهواء .. لابد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة، وفي مساحات واسعة؛ تناسب ضخامتها وامتدادها في

الهواء .. فكذلك هذا الدين .. إن نظامه يتناول الحياة كلها؛ ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها؛ وينظم حياة الإنسان لا في هذه الحياة الدنيا وحدها، ولكن كذلك في الدار الآخرة؛ ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها؛ ولا في المعاملات الظاهرة المادية، ولكن في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا .. فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية .. ولابد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضًا ..

هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته؛ يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده؛ ويجعل بناء العقيدة وتمكينها، وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها .. ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة، وضمانا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء، والضارب من جذورها في الأعماق ..

ومتى استقرت عقيدة: "لا إله إلا الله" في أعماقها الغائرة البعيدة، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه: "لا إله إلا الله"؛ وتعين أنه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة .. واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته، وقبل أن تعرض عليها تشريعاته. فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان .. وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول، لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له. وهكذا أبطلت الخمر، وأبطل الربا، وأبطل الميسر، وأبطلت العادات الجاهلية كلها، أبطلت بآيات من القرآن، أو كلمات من رسول الله ﷺ بينما الحكومات الأرضية تجهد في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها ونظمها وأوضاعها، وجندها وسلطانها، ودعايتها وإعلامها .. فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر من المخالفات؛ بينما المجتمع يعج بالمنهيات والمنكرات!»[1].

* * *

وكلما نظرت إلي أي سورة من سور القرآن خاصة ما كان مكيًا كجملة سورة الأنعام وباقي السور المكية وجدتها كلها تدور حول التوحيد، وتعرضه كل سورة عرضًا خاصًا حتى لكأنها لأول مرة تعرضه، وهذا مما تتميز به هذه السور في هذا الكتاب المبارك[2].

وإذا نظرت إلي السور المدنية التي تتناول الأحكام التفصيلية وجدتها على نفس النسق الذي سبق تقريره: أنها مبنية على التوحيد ومستصحبة له ومذكرة به ومخاطبة باسمه ومعلقة بشرطه.

فقد وجدنا النص على التوحيد وأدلته وحقوقه ومكملاته (الشرائع) وهو غاية القصص وغاية الإنذار والبشرى وارتباطه بالخَلْق والإشهاد والمواجهة وهو الوصية.

ومن هنا نفهم عمق كلمة ابن القيم وعمق علمه حينما قال:

«بل نقول قولاً كليًا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن.
(٢) يراجع الظلال.

فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد؛ فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[1].

* * *

ولهذا فالتوحيد هو أعظم ما يُبيَن للناس.

وما من صادق يعرفه ويعرف قيمته إلا أدرك هذا ..

يقول شيخ الإسلام: أني ما بينت حقيقة التوحيد ومعناه وأهميته لأحد من العبّاد والعارفين إلا قالوا: هذا أعظم ما بينته لنا[2].

ويقول ـ رحمه الله ـ أيضًا: «فدين الله أن يدينه العباد ويدينون له فيعبدونه وحده ويطيعونه وذلك هو الإسلام له فمن ابتغى غير هذا دينًا فلن يقبل منه وكذلك قال في الآية الأخرى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، فذكر أن الدين عند الله الإسلام بعد إخباره بشهادته وشهادة الملائكة وأولي العلم أنه: لا إله إلا هو.

والإله هو المستحق للعبادة فأما من اعتقد في الله أنه رب كل شيء وخالقه وهو مع هذا يعبد غيره فإنه مشرك بربه متخذ من دونه إلهًا آخر، فليست الإلهية هي الخلق أو القدرة على الخلق أو القدم كما يفسرها هؤلاء المبتدعون في التوحيد من أهل الكلام، إذ المشركون الذين شهد الله ورسوله بأنهم مشركون من العرب وغيرهم لم يكونوا يشكون في أن الله خالق كل شيء وربه، فلو كان هذا هو الإلهية لكانوا قائلين إنه لا إله إلا هو.

فهذا موضع عظيم جدًا ينبغي معرفته لما قد لبس على طوائف من الناس أصل الإسلام حتى صاروا يدخلون في أمور عظيمة هي شرك ينافي الإسلام لا يحسبونها شركًا، وأدخلوا في التوحيد والإسلام أمورًا باطلة ظنوها من التوحيد وهي تنافيه، وأخرجوا من الإسلام والتوحيد أمورًا عظيمة لم يظنوها من التوحيد وهي أصله.

فأكثر هؤلاء المتكلمين لا يجعلون التوحيد إلا ما يتعلق بالقول والرأي واعتقاد ذلك دون ما يتعلق بالعمل والإرادة واعتقاد ذلك، بل التوحيد الذي لابد منه لا يكون إلا بتوحيد الإرادة والقصد وهو توحيد العبادة وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله: أن يقصد الله بالعبادة ويريده بذلك دون ما سواه وهذا هو الإسلام فإن الإسلام يتضمن أصلين:

أحدهما: الاستسلام لله.

والثاني: أن يكون ذلك له سالمًا فلا يشركه أحد في الإسلام له.

---

(١) مدارج السالكين جـ٣، صفحة ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٢) يراجع مجموع الفتاوى.

وهذا هو الاستسلام لله دون ما سواه وسورة "قل يا أيها الكافرون" تفسر ذلك، ولا ريب أن العمل ومقصده مسبوق بالعلم، فلابد أن يعلم ويشهد أن لا إله إلا الله، وأما التوحيد القولي الذي هو الخبر عن الله ففي سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وفيها اسمه الأحد الصمد وكل هذين الاسمين يدل على نقيض مذهب هؤلاء الجهمية كما بيناه في موضعه.

وعبادة الله وحده يدخل فيها كمال المحبة لله وحده وكمال الخوف منه وحده والرجاء له والتوكل عليه وحده والتوكل عليه كما يبين القرآن ذلك في غير موضع، فكل من أصول التوحيد الذي أوجب الله على عباده، وبذلك يكون الدين كله لله كما أمر الله رسله والمؤمنين بالقتال إلى هذه الغاية حيث يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾»[1].

* * *

إننا مسلمون.

لكن لا يعني هذا أن نتجاوز التوحيد على أنه أمر قد قرر وانتهينا منه لندخل في غيره.

فعلى هذا .. لِمَ وصى نبيّ كريم أبناءه به؟.

ولِمَ خافه خير البرية[2] بعد محمد؟ ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

بل ولماذا كان خير الخلق ﷺ يسأل الله تعالى كثيرًا أن يثبت قلبه على دينه؟ ولماذا كان إذا اجتهد في اليمين يقول: «لا ومقلب القلوب».

ولماذا قال العلماء: فكلما زاد علم العبد زاد خوفه من النفاق ومن الكفر.

ولماذا قال السلف عن النفاق: ما خافه إلا مؤمن ولا أمِنه إلا منافق.

ولماذا كان الراسخون في العلم ـ وليس مجرد العلماء ـ هم الذين يخافون الزيغ عن أصل الهدى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧-٨].

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بعد إيراده لحادثة ذات أنواط وهي حادثة أن بعض الصحابة أسلموا حديثًا "حديثو عهد بإسلام" مروا على شجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم تبركًا بها فقال بعضهم لرسول الله: "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط"، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن من فوائد الحديث: أن قول الجاهل: (التوحيد فهمناه) أن هذا من أعظم مكايد الشيطان.. وهذا نص كلامه أثناء مناقشته لشبه عباد القبور والأوثان:

«الجواب عن شبهتهم فيما حكاه الله عن بني إسرائيل وفي قصة ذات أنواط ومن الدليل على ذلك ـ أيضًا: ما حكى الله عن بني إسرائيل ـ مع إسلامهم وعملهم وصلاحهم ـ أنهم قالوا لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وقول أناس من الصحابة: اجعل لنا ذات أنواط فحلف النبي ﷺ أن هذا نظير قول

(١) الفتاوى الكبرى، جـ ٦، صفحة ٥٥٩.
(٢) في الحديث: «خير البرية إبراهيم».

بني إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾، ولكن للمشركين شبهة [أخرى] يدلون بها عند هذه القصة وهي أنهم يقولون: إن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك وكذلك الذين قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط لم يكفروا.

فالجواب: أن نقول: إن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا ذلك ولا خلاف أن بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا، وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي ﷺ ـ لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه ـ لكفروا وهذا هو المطلوب.

ولكن هذه القصة تفيد: أن المسلم ـ بل العالم ـ قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل التوحيد فهمناه: أن هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان»[1].

ويقول الشيخ حمد بن عتيق: «وقال ابن القيم رحمه الله: وبحسب إيمان العبد ومعرفته، يشتد خوفه أن يكون منهم، ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقوها على أنفسهم، أن يكونوا منهم. انتهى[2].

فكلما زاد الإيمان، اشتد الخوف من النفاق، وعلى حسب ضعف الإيمان يكون الأمن منه، وأما خوف الكفر فيكفي فيه قول الله تعالى إخبارًا عن خليله إبراهيم: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وهو يدل على شدة خوفه من هذا الأمر، وفي الدعاء المأثور: «اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر، وأن أرد إلى أرذل العمر»، واعلم أن كون الإنسان يشتد خوفه من الكفر والنفاق ويكثر البحث عن أسبابها ونحو ذلك هو أمر غير التلفظ به»[3].

وأنواع الشرك كثيرة وهي كما يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «وهذا إنما يتبين بالتمثيل والحد لا بالعد»[4]. وهذا سواء في الشرك الأكبر أو الأصغر.

* * *

ولإيضاح أهمية كل هذا البحث كأهمية عملية ـ مع قيمة الفهم عن الله تعالى ـ نلقي نظرة على واقع الأمة المسلمة:

إنّ بُعد المسلمين اليوم وغيابهم عن هذا الدين، والكم الهائل من الفواحش والمنكرات، والإباحية الطاغية والتي يتربى عليها أبناؤنا في مناهج التعليم المغرّبة عن الدين، وفي وسائل الإعلام المدمرة لما تبقى .. والمجاهَرة بمعاداة هذا الدين ..

كل هذا لم يقع لمجرد التسيب في التمسك بالقيام بالأحكام أو بسبب الميوعة في أخذها فقط، ناهيك أن يكون هذا خللاً في السلطة التنفيذية في بلاد المسلمين اليوم، وإنما مع هذا هناك بُعْد هام إن لم يعالج فلا خروج من هذه الورطة الكبرى التي ألمّت بالمسلمين، ولا خروج من هذا النفق المظلم الذي يزداد سوءًا كل يوم، وينتظر المسلمون الأسوأ إن لم يعالجوا الأمر الأساسي، وهو بيان معنى الإسلام والتوحيد وحقيقة دين رب العالمين، وأن إفراد الله تعالى بحقوقه الخالصة في النسك والتعبدات، وفي التشريع في جميع مناحي الحياة، سواء في الناحية الفردية: (عبادية أو عادية)، أو في

---

(١) كشف الشبهات جـ ١، ص ٣٥.
(٢) يقصد انتهى كلام ابن القيم والكلام متصل للشيخ حمد.
(٣) الدرر السنية.
(٤) مجموعة التوحيد، ص ٤٦٣.

الناحية الجماعية: (عبادية أو عادية)[١] .. بيان أن هذا من أصل الدين ومن التوحيد وهو لب الإسلام وأصله وأساسه، ولا نجاة للعبد إلا بهذا.

وهذا البيان المطلوب تعليمه لأمة محمد ﷺ اليوم هو تعليم من أجل الإحياء للأمة، وليس لإصدار أحكام على الخلق، وليس بغرض التدليل على كفر المعاصرين!، فهذا ليس مقصودًا، وهو خطأ قطعًا، وكذلك فالتوقف والتكفير في العموم للأمة بدعة، ولكن الشأن مع المبدلين للدين الرافضين له والمعلنين لهذا وهم محاربون لله ورسوله ..

إن المنكَر الذي يحاربه الدعاة ليتركه الناس تنص القوانين (الأحكام البديلة عن دين الله) أنه مباح، بل وتحرس إباحته، بل وتجرم من يحرمه على الناس وتعاقبه، وهذا نابع من الجريمة الأكبر التي هي ليست مجرد تبديل حكم ما من الأحكام بل النص والتصريح برد الأمر لغير الله تعالى وإعطاء حق التشريع للأمة أو لحزب أو لطبقة أو لشخص .. كلٌ في ميزان الله سواء، وكلٌ في ميزانه جريمة.

فالشأن المطلوب من كل هذا هو بيان كيف يكون الطريق في الإحياء.

ومن أين نبدأ مع أمتنا.

وبيان أن وجوب قبول شريعة الله تعالى وحدها لا يتم إلا برفض ما سواها، وأقل درجات الرفض هو الكره القلبي بإشهاد الله تعالى بالبراءة من هذا التبديل ومن القائمين عليه الذين فرضوه على الناس، ولهذا الكره القلبي دلالة عملية من اعتزال أهل الباطل وعدم مشاركتهم ومشايعتهم على عملية تبديل الدين وفرض شرائع (قوانين) بديلة عن دين الله تعالى تحكم حياة الناس ..

إننا إن لم نربط بين الوعظ للقيام بأمر الله تعالى وبين أصله من قاعدة العبودية لله بقبول شرعه ورفض ما سواه كما ربط القرآن .. **فإذن لم نفهم القرآن** ..

وكذلك لم نفهم الواقع الذي ليس هو كواقع المسلمين الذي كانوا عليه لأكثر من عشرة قرون كانت يحدث فيها تسيب في التطبيق فيحتاج المسلمون للتذكير ..

ولكن اليوم الواقع مختلف فإنه يرد الأمر لغير الله ويستنكر أن تحكم الناس شريعة الله تعالى بل ويستخف أو يحارب أو يسخر ..

فلابد من فهم الواقع المرتبط بين شيوع المحرمات وبين إباحتها، ويربط بين التسيب في الفرائض وبين الإباء من قبول فرضيتها كفريضة عامة على المجتمع، وبين تعطيل الحدود ورفضها .. وهكذا.

وبين كل هذا ورد الأمر إجمالاً لغير الله تعالى، وإهدار اعتبار الشرع جملة بتغيير المصدر المشرع الإلزامي.

وليس كل الناس يرضى بهذا بل كثير من الناس يرفض هذا التبديل ولا يستطيع أن يعبر عن هذا الرفض، ولكن المقصود أن هذه ظاهرة يجب معالجتها ولا تعالج إلا بتوضيح لحقيقة الواقع وحقيقة دين الله تعالى .. ليكون المسلمون على بينة من أمر دينهم.

* * *

(١) يقصد بالعادي: العادات والمعاملات.

وما كانت كارثة العراق[1] إلا بولاء المنتسبين للإسلام للكفار، وهو خلل في التوحيد إما في فهمه وإما في القيام به ممن يدعيه سواء من كانوا من الرافضة أم من أهل السنة زورًا ..

وما كارثة فلسطين إلا بـ:

١- غياب الهوية الإسلامية بغياب الولاء الإسلامي باستبداله بالقومية رابطة بديلة وهو خلل في فهم لا إله إلا الله.

٢- مع الخيانة والتواطؤ مع العدو.

٣- غياب الإسلام كشريعة وطريقة ومنهج حياة.

٤- غياب اكتساب القوة.

وما أحداث الصومال إلا ولاء للصليبيين في إثيوبيا والغرب من أجل شهوات ذاتية يدمرون بها أمنهم القليل وأمل أمتهم من أجل ما حقر من الشهوات.

وما وضع السودان إلا تحالفًا مع الوثنيين والشيوعيين الملحدين والصليبيين من أجل تفتيت الأمة هناك تنفيذًا وتواطؤًا مع مخططات غربية وصهيونية.

وسقوط العراق واحتلال أفغانستان لم يكن شيء من هذا إلا بولاء للكافرين أمِن به الكفار على أنفسهم ودُلو على عورات المسلمين، فأمنوا واجتاحوا أجزاء غالية من أرض المسلمين، وتسلطوا على رقاب أمة محمد ..

والقائم بهذه الجرائم ـ انتسابًا ـ مسلمون!.

وما هذا إلا بغياب لـ "لا إله إلا الله" ـ فهمًا ـ أو عدم القيام بها إيثارًا للعاجلة .. وتخاذل الأمة عن امتلاك القوة التي هي فريضة كفائية تأثم الأمة كلها بتضييعها وقد استبيحت أعراضنا وأرضنا ومقدراتنا ودينّا بسبب افتقادها ..

وكذلك افتقاد التماسك الاجتماعي والاقتصادي القوي الذي يحفظ الأمة من الداخل، ويمنع العدو من اصطياد أطراف موتورة أو طامعة، لتفتيت الأمة واستباحتها .. وكل هذا الضياع بسبب غياب فهم "لا إله إلا الله" ولعدم القيام بها وبحقوقها من الفرائض مثل التي أسلفنا الإشارة إليها ..

والقرآن واضح في أن الولاء حق خالص لله وأن التولي بغير ولاية الإسلام أو ذبذبة الولاء وتأرجحه بين المسلمين وعدوهم فضلاً عن انعدام الولاء .. وفضلا عن المسارعة في ولاء الكفار خشية الدوائر: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ [المائدة: ٥٢].

كل هذا نفاق أعظم وكفر أعظم وردة: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩].

* * *

(١) باحتلاله من قبل الأمريكيين عام ٢٠٠٣م، وقتل أكثر من مليون من أهله وتشريد حوالي ٥ ملايين لاجيء موزعين فى داخل العراق وخارجه فى جميع أنحاء العالم إلى الآن ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

فمن قرأ القرآن ولم يفهم رسالته هذه فليُعد قراءتـه فقد فاتـه أصل الأصول وزبدة الرسالة ولبُها.

فماذا يفهم إن لم يفهم قضية القرآن الأولى وقضية الخلق الأولى والتي خُلقوا من أجلها؟.

ولا يجوز لأمة تحمل كتاب الله تعالى، ويحمله الكثير من أبنائها في صدورهم، ويتلى عليها آناء الليل وأطراف النهار أن تنسحب من الحياة وأن تُسحق، ثم يقوم يناضل عن قضاياها علمانيون (لا دينيون) يرفضون هذا الكتاب ويسخرون منه ويحاربونه، ويزعمون حراسة مقدراتها فإذا بهم يضيعون أكثر ممن قبلهم وهكذا .. ثم ينتظر المسلمون مآسي أكبر ..! وفى المقابل يقعد أصحاب هذا الكتاب .. !!.

كيف لأمة تحمل هذا الكتاب يكون هذا واقعها؟ هذا لا يجوز، ويجب أن لا يكون، ولابد من الرجوع إليه فيُفهم أولاً وتُفهم قضيته الأولى وقضاياه التي يتناولها .. وأن تُفهم رسالة الله إلى خلقه .. وأن تقوم بها هذه الأمة الخيّرة ..

* * *

ومن لم يدرك أهمية ما شرحنا في هذا الفصل فلينظر إلي الواقع، ومن لم يدرك انطباق القرآن على واقعه فقد فاته الكثير؛ فإن كل واقع الى قيام الساعة يدخل تحت خطاب القرآن من باب أن: «لكل قوم وارث»، فكل من ذُكروا في القرآن من مؤمنين أو فجار لهم ورثة في واقعنا يتناولهم الخطاب الرباني وينطبق عليهم؛ ومن ثم تبقى دلالة القرآن والعبرة منه باقية لكل أحد يأخذه بجد إلى قيام الساعة ..

ولنقرأ هذه الكلمات لابن القيم وهو يتحدث عن آية سبأ:

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

يقول رحمه الله: «فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاة وتجريدًا للتوحيد وقطعًا لأصول الشرك ومواداه لمن عقلها والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه ويعود المعروف منكرًا والمنكر معروفًا والبدعة سنة والسنة بدعة ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانا والله المستعان»[1].

* * *

وهذا الذي شرحناه من أمر التوحيد هو أعظم ما يجب على المرء تعلّمه، وإلا فلو دخل في الشركيات الصريحة من الشرك الأكبر عاكفًا عليه، وفى ظنه أنه على الجادة والصواب، فإن ظنه لن يغني

(١) مدارج السالكين، جـ١، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

عنه شيئًا، وهذا هو الضلال قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦]، وهذا يوجب الحذر، ويوجب طلب هذا العلم، وعدم الاستهانة بما شرحنا وأطلنا فيه الكلام.

يقول الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين: «وقد دخل كثير من هذه الأمة في الشرك بالله، والتعلق على ما سواه، ويسمون ذلك: توسلاً وتشفعًا. وتغيير الأسماء لا اعتبار به، ولا تزول حقيقة الشيء ولا حكمه بزوال اسمه وانتقاله في عرف الناس باسم آخر.

فتغيير الأسماء لا يزيل الحقائق، وكذا من ارتكب شيئًا من الأمور الشركية فهو مشرك، وإن سمى ذلك توسلاً وتشفعًا .. وحكم الشيء تابع لحقيقته لا لاسمه، ولا لاعتقاد فاعله ..».

ويقول: «من صرف لغير الله شيئًا من أنواع العبادة فقد عبد ذلك الغير، واتخذه إلهًا، وأشركه مع الله في خالص حقه، وإن فرّ من تسمية فعله ذلك تألهًا وعبادة وشركًا.

ومعلوم عند كل عاقل: أن حقائق الأشياء لا تتغير بتغير أسمائها فلو سمى الزنا والربا والخمر بغير أسمائها لم يخرجها تغيير الاسم عن كونها زنًا وربًا وخمرًا ونحو ذلك.

ومن المعلوم أن الشرك إنما حرم لقبحه في نفسه، وكونه متضمنًا مسبة الرب وتنقصه وتشبيهه بالمخلوقين، فلا تزول هذه المفاسد بتغيير اسمه كتسميته: توسلاً وتشفعًا وتعظيمًا للصالحين وتوقيرًا لهم، ونحو ذلك.

فالمشرك مشرك شاء أم أبى، كما أن الزاني زانٍ شاء أم أبى، والمرابي مرابٍ شاء أم أبى»[1].

* * *

فأكثر الخلق إنما أُتى من الضلال والتقليد وإحسان الظن بمن لا يوثق في دينه.

كذلك ولم تستطع العلمانية أن تستقر في بلاد المسلمين إلا بالتلبيس على المسلمين سواء بتلبيس الواقع باللافتات الكاذبة والتستر خلف شعارات احترام الدين بينما حقيقتها رفضه، وتلبيس الدين بتغييب مفاهيمه واللجوء لمفاهيم الإرجاء التي تجعل التوحيد إما: تلفظًا مجردًا، وإما اعتقاد أن الله هو الخالق الرازق فقط دون أن يعرفوا أن معناها عبادته وطاعته بلا شريك.

ومن هنا فلنقرأ كتاب الله تعالى .. ولنفهم مقصده الأصلي، ورسالته الأولى .. والغاية التي أنزل من أجلها، والتي أرسل من أجلها رسول الله، والتي لها خُلقنا، ومن أجلها أُنذرنا، ومن أجلها قص الله علينا القصص .. بل ولها أشارت كل آية في الكتاب العزيز .. الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ..

وصلى الله وسلم وبارك على أكرم الخلق محمد

وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) الدرر السنية.